حار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع

جان فيركوتير مصرالقديمة

ترجمة: ماهر جويجاتي



۱۷ کتاب الغکر

هصر القديهة

البليمة الأولث الشاعرة - 1997 جرج المترق ممنونلة



القيامرة - باوين

الشاعرة شمشاءليب ، رشد ١٢/٢٥ مديشة نصر - المعشمة الشاعشة

تليغون: ١٤٠ ٥٣٧٧

مدرهذا الكنابالتناون مع البيثة الفرنسية للأبحاث والتعاون للأبحاث والتعاون تسم الترجمة - القامة

چان ڤيركوتير

مصر القديمة

ترجمة: ماهر جويجاتي



ترجمة كتـاب oue sais-je ؛

L'Egypte ancienne

JEAN VERCOUTTER
Membre de l'Institut

Treixième édition compée 101° millo

© Presses Universitaires de France, 1946 108, houlevard Saint-Germain, 75006 Paris



البائية الأول مصر في الزمان والمكان

١ -- مصن وعالمنا العاصين

في زمن استحوذت فيه على عقولنا أكثر الأبحاث العلمية تنوعاً، بما تحفل به من تباشير ووعود، وفي عصر تعانى فيه أفكارنا من هموم الحياة المادية ومن عدم اليقين بالنسبة للمستقبل، فإنه قد يبدو من المفارقات الغريبة أن يهتم الم، بعصر القديمة وغم البعد الزمنى السحيق الذي يغصلها عناً. لقد انقضى أكثر من خمسة آلاف سنه منذ حكم الفراعنة الأوائل مصر، بعد أن توحدت. ومر عشرون قرناً تقريباً منذ أن اضمحلت هذه الحضارة واندثرت إلى الأبد. تُرى، ما الذي يستهوينا في هذا التاريخ القديم وبل الاقدم في العالم؟

إن قدم الحضارة المصرية في حد ذاته هو أمر على قدر كبير من الأهمية. فلم تعرف مصر انفصالاً بين حضارات عصر الحجر المصقول والعصر التاريخي، فالمرحلة الأولى تقرد إلى الثانية،

وعندما بدأت مصير تاريخها المكتوب، حوالي عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، كان ورامها تجرية إنسانية طويلة، فتم بشكل نهائى اكتسباب رقعة الأرض الزراعية، وتشكلت عناصر الديانة الممرية، وتثيثت لمصر لغتها وكتابتها، وتوهلّدت مؤسساتها الرئيسية، ومن ثم يمكن اعتبار عام ٢١٠٠، تاريخا اصطلح عليه، تماماً كما اصطلح على اعتبار عام ١٣٩٥م بداية العصر الوسيط في أوروبا. والواقع انه من الصعوبة بمكان أن نحدًد تاريخاً لبدايات الحضارة المصرية التي تختلط بميلاد المشهد البشري في مصر بعد أن وضيع الإنسان يده على وادى النيل، ورغم أن البرونز كان معروفا في زمن الدلوة الحديثة (١٥٠٠ ق.م)، فقد ظلُّ المصريون يجيدون قطع الظرأن ويستخدمون في طقوسهم الديثية نفس السكاكين المصنوعة من الحجر المصقول، تماماً كما كان يستخدمها أخر الرجال من أبناء العصر «الإنبولوثي» (الحجرى التحاسي) في وادى النيل. وكان الكهنة الجنائزيون يتبرعون بنفس العبارات التي تناقلها أسلافهم اليعيدون شفاهة، قبل ظهور الكتابة، ومن هنا، فإن تاريخ مصس يشكل أطول تجرية إنسانية حضارية، إذ يمتد من الألف الرابع على أقل تقدير حتى العصر المسيحي، وطوال هذه المقية الطريلة جداً، ظلت جماعة من البشر تتحدث نفس اللغة، وتعتنق نفس التصورات الذهنية عن الحياة الدنيا والآخرة، وتعيش في ظل نفس القوانين، ألا تعتبر دراسة هذه الحضبارة

ومقارنتها بحضارتنا المعاصرة، من الأمور المثيرة حقاً؟ فيما تغير الإنسان منذ هذه الأزمنة الغابرة (إن كان حقاً قد تغير)؟ هل مناك تطور الحضارات، أو بالأحرى حياة المجتمعات البشرية على غرار الأفراد: ميلاد، ونمو، ونضج ثم موت؟ وهل الموت هو المصير المحتوم الذي ينتظر كافة الحضارات؟ كيف تولد الحضارات وكيف تختفى؟ أسئلة لا تستطيع دراسة مصر القديمة، أن تجد لها بكل يقين، رداً شافياً، إنما يكفيها أنها طرحتها، إن الحضارة المصرية بالنسبة لكل شخص مهتم بالإنسان، تظل مصدر معلومات لا يمكن تجاهله، وتظل هذه الحضارة جديرة شائها شأن الحضارتين الإغريقية والرومانية القديمةين – بأن تكون إحدى ركائز النزعة الإنسانية الحديثة،

بيد أن ما يثير اهتمامنا بالحضارة المصرية ليس فقط قدمها، واكن أيضا استعراريتها وتواصلها، ففى أوروبا وأمريكا تتعاقب الحضارات أيضا، ولكنها تختلف عن بعضها البعض، فيفصل بين كل حضارة وأخرى صدع عميق: الغزو الروماني للعالم الكلتي والغزوات الكبرى للعالم اللاتيني، وغزو أسبانبا للأمريكتين المسطى والجنوبية، الغ، ففى كل مرة يعود التساؤل حول جوهر الحضارة ذاته إلى طرح نفسه على بساط البحث، والمجتمع البشرى الذي يتشكل في أعقاب هذه التقلبات لا يشبه المجتمع الذي سيقه. أما في مصر فإن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث،

ومنذ بداية العصس المجرى المديث وحتى السيطرة الفارسية والغزو المقدوني، وتاريخ مصر يسير في مجرى منتظم، ومما لاشك فيه أن البعض قد بالغ من الظاهرة التي شكلتها حضارة عظمي، ولدت ونمت في عزلة تامة، كما يعتقد البعض، لقد كان هناك تسلل أجنبي ومؤثرات خارجية، ولكن كل ذلك لم يكن من القوة بحيث يؤثر في الطابع الأمنيل للحضارة المنزية، فمصر النولة الوسطى في السليلة الشرعية للدولة القديمة، كما ظلت مصبر بعد غزو الهكسوس هي هي كما كانت دائماً. هذه الاستمرارية القريدة في بابها، خاصة عندما نفكر في الزمن الذي استغرقته، ترجع في الجانب الأكبر منها إلى ارتياط العضارة المصرية ارتياطا وثيقا بمجتمع جغرافي: هو وأدى النبل، وجهما قال اليعض أو ذهب في ظنونه، فإن مصل لم تستورد حضارتها ، ولدت حضارة مصل في وادي الذيل ذاته، وهي حضارة نيلية إفريقية، في جوهرها، وهذا ما أعطاها قوة هائلة، فلقد تكيفت بالفعل تكيفاً لصبيقاً بالإطال الجغرافي الذي انبثقت منه والذي أسهمت في نفس الوقت في خلقه. ومن ثم كان على الغزاة الذين خاطروا وجاء إلى وادى النيل، في فترات الضعف أو الفوضي، إما أن يندمجوا على جناح السرعة أو أن يُلفظوا إذا تعذّر عليهم التكيف مع ضروريات البلاد. وكانت استمرارية المضارة في مصر ذات فأئدة عظيمة للوصول إلى معرفة ثاقبة بتاريخ العالم، فهي لا ثلقي الضرء فحسب على الحياة القديمة في القارة الإفريقية التي بدوتها لما عرفنا عنها شئ، بل إنها تسمع لنا بدراسة وتأريخ بعض الثورات التقنية أو الأخلاقية التي آثرت في البشرية في عصورها القديمة. فمنذ بداية استخدام المعادن والتحسينات التي أدخلت على الزراعة وتربية الماشية وتقنيات البناء والتشييد وصناعة النسيج والري، ومنذ اختراع الدفة، ومنفاخ الحداد، واستخدام الحصان وصولاً إلى ظهور الإمالاحات الأخلاقية في الديانة الوثنية وانتشار السيحية، فإن كل الأحداث، صفيرها وكبيرها، والتي رسمت طريق النطور في الشرق القديم أو في العالم الكلاسيكي، تركت بصماتها في مصر.

وأخيراً، فإن مصر لا تفرض نفسها على فضوانا بسبب قدم تاريخها واستمراريته فحسب، إنها بسحر إنسانيتها قد بلغت العالمية، فحضارتها، وهي الأكثر عراقة في العالم، هي أيضاً من أكثرها اكتمالاً، وحتى في أيامنا هذه يميل البعض إلى النظر إلى مصر على أنها حضارة غريبة، تجمدت في سكون لا أكثراثي ولا إنساني، ولكن مصر شي أخر، فهي خلافاً لهذا التصور، تمثل إنسانية عميقة جديرة بشد اهتمامنا. لقد سعت مصر إلى البحث عن إجابات المعضارة التي مافتئت تتسلط على فكر الإنسان، فعلى امتداد تاريخها الذي يناهز الأربعة آلاف سنة، عانت مصر من شتى صروف الحياة التي تصيب أي مجتمع بشرى، من حروب أهلية وقوضي ومجاعات وغزوات أجنبية ومدراعات دينية، فلم

تجنبها الحياة شيئاً. لقد عرفت مصر كل شي، القلاقل الاجتماعية أن الاضطرابات الدينية على حد سواء، وتقاذفها الإيمان والشك، كما بذلت كل المحاولات للإفلات من مصيير الإنسان المحتدم: فارتعدت أمام الموت وحاولت قهره، واليوم ربما بدت محاولاتها هذه صبيانية، ولكن ما يمنعنا من تصور ذلك هو العظمة الراسخة لآثار مصر والهتها الجنائزية بملامحها الجامدة التي تثير القلق،

وهكذا فإ مصر جديرة بأن نتعرف عليها من خلال الدراما الإنسانية التي يمثلها تاريخها، هذا التاريخ الذي نون طوال هذا الزمن على مختلف الآثار التي ساعد مناخ مصر على حفظها حتى وصلت إلينا. فقبل الإغريق بأكثر من ألقى سنة عمد الفن للصرى، ربما بشكل عضوى، واكن بكفاءة، إلى تمجيد الإنسان وعمله وآلامه وافراحه، إن الأقنعة التي صنعها المثالون المصريون للوكهم وخلفها لنا، والتي يبدر بعضها مهيباً، وتنم ملامح بعضها الأخر عن الدعة، أو تكشف أحياناً عن الألم والماساة، هي أقنعة تشير إلى قوة الملاحظة التي عرف هؤلاء المثالون كيف ينظرون من خلالها إلى الإنسان ويفهمونه.

كما تشهد هذه الأقنعة على دراما الإنسان وقد سيطر على عمله، أو على المكس سحقه هذا العمل، بل وأضحى غير أهل لممنة ولم يكتف المصريون بملاحظة الإنسان وحسب، بل امتد بصرهم بالملاحظة إلى كل ما يحيى من حولهم: الثدييات والطيور

والأسماك بل والنبات أيضناً، وقد ردّ إليها الفن المصري هماة متدفقة، أما الأدب للمسرى، وإن كان أفقر من الأدب الهلليذي بمراحل، إلا أن ذلك لا يعني أنه عديم الأهمية، فقد توصل إلى أساليب لازالت تفتئنا يرغم ما يقصلنا عنه من زمن شاسم.. وهكذا أثرت مصدر بفنها تراث الإنسانية قاطبة ولعبت بوراً في التاريخ العالمي لا يجب أبدأ الإقلال من شأنه. فإن كانت مصير لم تأخذ من الآخرين سرى القليل إلا أنها أعطت في المقابل الكثير، وما المنطلح على تسميته بالعالم الكلاسيكي، ما كان ليصبح ما كان عليه لوالم تسبقه مصدر القديمة بزمن طويل لتشق دروب الحضارة، وإذا كان من الصعب معرفة مدى تتثيرها على الحضارة اليونانية الوليدة، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثيرها على نمو هذه المضارة، ولم يفت هيرودون بالتحديد أن يشير إلى هذا الأمر، فقد انتقلت عن طريق الإغريق بعض المفاهيم للصرية القديمة إلى حضارتنا الغربية، ومن ثم كان من حق مصر طينا أن نعرفها واو باعتبارها مهد أجدادنا الأولين،

۲ – معرفة مصبر

أقدم المحضارات في العالم، هي أيضاً إحدى الحضارات التي لم تعرفها إلا منذ عهد قريب، إذ جاء «اكتشافها» قبل مايزيد قليلاً على القرن من الزمن، وهو مايعني أن علم المسريات لايزال علماً

حديدت المهد، فلم يتسنُّ لنا معرفة اللغة المسرية إلا منذ مايقرب من ستين سنه،، كذلك لم تلمّ بعد بميدان علم المسريات بأكملة، فالازلنا في مرحلة الاستكشافات، وتتواميل المفائر بانتظام وتمدنا سنوياً بوتائق جديدة، ويجرى نشر ماسبق جمعه من آثار يشكل منهجي منسق، وطالما لم نصل بعد إلى معرفة كل المسادر التاريخية فلا يزال أملنا كبيرا في الوصول إلى اكتشافات جديدة. بيد أن ما تجمع بين أيدينا من معلومات يكفي للشروع في كتابة تايرخ الحضارة المسرية في خطوطها العريضة، ولم يكن في مقدورتا أن تعرش هذه الصورة الإجمالية عن الحضارة المصرية القديمة، على إيجازها، لولا اكتشافات «جان فرائسوا شمیوایون» - ۱۷۹۰) Jean - François Champolion ميدع علم المصريات، وكان من النتائج المثيرة لمغامرات تابليون، أنها شدت انتباه العقول المتعطشة إلى المعرفة إلى الشرق الأدنى المصرى، ويمكن القول دون ميالغة أن إعادة اكتشاف مصبر القديمة يرجع إلى عام ١٨٠٩ مع نشر كتاب «رصف مصر» Description de l'Égypt الذي وضبعه علماء المملة القرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، لقد احتوى هذا المؤلف الهائل على مواد ومعلومات جديدة، في نفس الوقت الذي بدأت فيه المركة الروسانسية تميي ذوق الماضي وذوق التشرق، وليس مين قييل المصادفة أن «ديبلاكروا» Delacroix و «بيسرون» Byron والأمرتين» Delacroix علي سبيل

المثال لا المصير، كانوا معاصرين لشسيوليون، وكانوا مثله مشردين إلى عالم الشرق، ويطبيعة الحال لم يكن كافياً أن تتوفر الظروف المواتية، وأن يتوصيل علماء البعثة الفرنسية في مصر يقضيل علمهم الرائم التؤون إلى جمع للعلومات اللازمة لإنجان هذا الاكتشاف، بل كان الأمر يحتاج أيضاً إلى العبقرية، وكان شميوليون يمسك هذا الوهج الذي لا غنى عنه، فقد كان شغوفاً بمصير متحمساً لها منذ نعومة أظافره، وإنكب يتعلُّم يجد كل مايشفى غليل ما يراوده من شغف: أن يلمّ بتاريخ مصر، وقتح له تكوينه الكلاسيكي الطريق أمام المصادر اليونانية واللاتينية، ثم زاد عليها بغضل جهده الدؤرب، معارف متخصصة كان يدرك مدى هَائدِتها: هَفِي القرن السابِم عشر يرهن الأب «كيوشر P. Kircher وهو من الآياء اليسوعيين، على أن اللغة المصرية الكلاسيكية، لاتزال حية من خلال اللغة القبطية التي ظلت على أيامه لغة المديث بين رهبان مصرر، وغلل الرهبان يستخدمونها حتى القرن التاسيع عشر، ومن ثم تعلّم شميرايون اللغة القبطية وأضاف إليها دراسة العربية والعبرية، ألا يتحدث شعب مصدر اللغة المصرية وألا يعتبر الكتاب المقدس أحد أهم مصادر تاريخ مصرا وترشيحاً لهذه الدراسات تعلُّم السريانية والأثيوبية و«الكلدانية» (الأرامية). وهكذا واجه مشكلة المشاكل، وهي فك الرموز الهيروغليفية، وقد تسلُّح لها أحسن تسليح،

كان أحد قواد يوناين الفرنسيين قد اكتشف في دلتا النيل كتلة من البازات الأسود نقش على سطحها نص معون بثلاثة خطرط مختلفة. هذه الكتلة المجرية المعروفة اصطلاحاً بعجر رشيد نسبة إلى المكان الذي عثر طيها فيه، نشرت في كتاب وصف مصدر وعلى الفور صنارت محل امتمام الدوائر العلمية بالنظر إلى أهميتها. وفي واقع الأمر كان أحد الخطوط الثلاثة، وهو الشط اليوناني معروهاً؛ فأماط اللثام عن مرسوم صادر عن بطليموس الخامس إييفانوس (الظاهر). أما الخطان الأخران، فكان يتكون أحدهما من علامات تشبه تلك التي تشاهد على سيطوح المياني المصرية التي حفظها الزمن وهو الخط الذي يعرف اصطلاحاً منذ إكليمندس السكندري بالخط الهيروغليقي, (علامات الكتاب المقدسة) أما الخط الأخر - وهو مختلف كل الاختلاف، مع رجود بعض أرجه الشبه بينه وبين الخط العربي: غلابد أنه كان الشط الديموطبيقي، وهو خط مختصس شاع استغدامه في الوثائق الشعيبة.

وأقر الجميع على القور وبحق، أن النصبين الهيروغليقى والديموطيقي هما بكل بساطة ترجمة للنص اليونائي، وبدى أن المشكلة بسيطة: فالمطلوب قراءة وقهم لفة مجهولة تُرجم إليها نص مفهرم، وبالنظر إلى أن النصبين المصريين لم يتركا فواصل بين الكلمات شاتهما شان التص اليونائي — كان لابد من التوصل إلى

موضيم كل كلمة ومعناها ومحلها في الإعراب. لقد وقفت نخبة من عقول هذا العصس الثاقبة عاجزة أمام هذه المشكلة السهلة الحلّ في ظاهرها. زد على ذلك، أن المشكلة لم تطرح نفسها بالبساطة التي عرضتنا لها، فبداية النقش الهيروفليفي كان سهمشماً والباحثون يجهلون عدد السطور الناقصة، أما النص الديموطيقي فكان وحده سليما . بادئ ذي بدء، تصدي «أكريانه Akerblad و «سيلفستر دي ساسي» Sylvestre de Sacy لهذا النص الأخير، وتوصيلا إلى تحديد موضيع أسماء بطليموس في النص، ولم يذهبا إلى أبعد من ذلك، وانكب «يونج» Young ، الطبيب والفزيائي البريطاني الذائع السيط ، على النص الهيروغليفي، قتوميل هو أيضاً إلى تمديد موضيع إسم بطليموس، واستخدم الأصوات التي اعتقد أنه قد استطاع استنتاجها، لمحاولة قرامة باتى النص، ولكن دون جدوى، عندئذ تدخل شميوليون الذي يتابع في شفف أبحاث من سبقوه، فمسألة المنهج هي التي كانت تقف هي واقيم الأمن حاشاذُ نون تقدمهم، هنا الكتابة المصرية تصويرية، فتشير كل علامة فيها إلى صوت ولحد، كما هو الحال في اللغات الحديثة، وما هي هذه الأصوات؟ وهل هي أبجدية أم مقطعية؟ أن شميوليون نفسه قد تردُّد طويلاً. واكتشف بداية إن المروف الساكنة وصدها هي التي تكتب مع إغفال المروف المتحركة: شأنها في ذلك شأن العبرية والعربية القديمة، فلا يتبقى

من الكلمة سوى هيكلها العظمي، ومن فرطما تلمس طريقه، ومن كثرة ما قلب السالة في ذهنه، لاحت له الحقيقة فجأة، إذ كان النص المصري يحتوي بكل وضوح ورغم ما أصابة من تشويه على عدد من العلامات أكثر بكثير من النص اليوناني، وهي طأهرة كانت تحتاج قبل كل شيئ إلى تفسير، وأدرك شميرايون على الفور أن مده العلامات الزائدة مردِّها إلى حقيقة أنَّ المصرية القنيمة كانت في أن واحد تصويرية وصوتية، أو كانت بعبارة أخرى، تضم عالمات تقرأ وأخرى لا تقرأ - وهنفها تحديد معنى الكلمة، فحسب، شرع شميوليون يطبق ماتوصل إليه من اكتشافات، فقرأ أول ما قرأ جميع أسماء الملوك اليونانيين، في ترجمتها المصرية، `, ثم تصدى بعد ذلك للكلمات المصرية، بمعنى الكلمة، واعتماداً على إلمامه باللغة القبطية، لم يترصل فحسب إلى قراءة إسم رمسيس الشهير على أثر آخر، بل نجح أيضاً في فهم معنى الإسم ويعنى «رع (إله الشمس) أنجبه»، وهكذا خطى الخطوة القاصلة، فاستطاع أن يفهم الهيرىغليفية (١٨٢٢)، ومن الأن فصاعداً، انكب شميرليون على ماوقع بين يديه من نصوص، فعمل بنشاط منقطع النظير وتغلب على كل ما اعترضه من عقبات، وفي عام ١٨٣٢ ، بعد مضني عشن ستوات على اكتشافه الأول، وضبع كتاباً غي قواعد اللغة المصرية وشرح في إعداد قاموس، وجمع شائل رحلة قام بها إلى مصر مادة لمجموعة من المؤلفات عن آثار مصر

والنوبة، وأخذ يعد العدة للاستفادة من أعماله لإلقاء محاضرات في الكوليج دي فرائس Collège de France، عندما وافته المنية وهو في الثانية والأربعين من عمره، وقد انهكه ما بذله من جهد جهيد.

وبحتى نوفى عمل شميوليون حق قدره - إذ غالباً ما صدرت في حقه أحكام مجحفة وغير منصفة - ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى معارف علم المصريات، قبل فك رمون الكتابة الهيروغليفية، فماذا كنَّا تعلم عن مصن قبل عام ٩١٨٣٢ منذ أن أغلقت المابد المسرية أبوابها في القرن الرابع الميلادي اختفى كل من كان له القدرة على قراءة الهيروغليقية لتشمُّول كل الوثائق المسرية الأمتلية إلى علامات متماء، فانتمسرت معلوماتنا بالضرورة على ماكتبه المؤلفون الإغريق عن مصر، تذكر منهم هيرودون وديودورس الصقلي واسترابون وبلوطان خوس، ويمكن أن تضيف إلى هذه المساس بعض ماكتبه أباء الكنيسة، أمثال أكليفدس السكندري ويوسابيوس القيصري، ولا ينبغي بالطبع التقليل من أهمية هذه المصادر الكلاسيكية، فمن وسط هذه المؤلفات، يشدنا أحدها بصنفة خامية. ففي زمن أحد البطالمة، وضع كاهن مصري يدعي «مائتون» تاريخاً لمصر تلبية لطلب الملك الإغريقي، ولوحفظ لنا الدهر هذا السفر كاملاً، لكان جليل الغائدة، نظراً لأن «مانثون» كان مازال يمتك ناصية الهيروغليفية، والأسف ضناع هذا المؤلف النقيس واكنه تواتر إلينا على هيئة

شنرات مبعثرة وردت ضمن ما استشهد به بعض الكتاب كالمؤرخ الإغريقي اليهودي «يوسفيوس» و«سكستوس يوليوس» المؤرخ الإغريقي الملقب بالإغريقي والمختصر الذي أعده عنه يوساييوس القيصري، ومع ذلك فكل ما نعرفه عن هؤلاء الكتاب الأواخر إنما وصلنا من خلال المصنف الذي صنفه «چورج السنسيلي» -Georges le syn في النصف الثاني الميلادي.

إن مؤلف مانتون كما وصلنا ليس سوى ظل لظل، والقائدة الرحيدة التي ندين بها له هو تقسيم تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة. ولا تمثل جميع هذه المصادر مجتمعة سوى أقل من القليل، إذ من الصعب أن نستفيد منها، وبالفعل لم يجمع أصحاب هذه المؤلفات ماتوصلوا إليه من معلومات، مباشرة وبدون وسيط، بل لم يتعد كاتبوه عن كرنه مجموعة من «القيل والقال». ثم جاء اكتشاف شمهوليون ليغير من وضع المسألة، إذ المدحت الوثائق المصرية سهلة المنال، وصبار في الإمكان التحقق من صحة المصادر الكلاسيكسة واستكمالها، وشرعت مصر تواد من جديد.

ويقضل الأسس التي يضعها شميوليون، أمكن لعلم المصريات أن ينهض، ومازال يواصل نهوضه، بالنظر إلى أنه لم يتم إلى الآن حصر الثروات التي قدمتها لنا مصر، ولا هو على وشك أن يتم، فمازالت مصر القديمة تدخر لنا اكتشافات، على غرار اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون واكتشاف دفنات تأنيس --- صان الحجر،

حاليا - في وقت لاحق، ومن ثمّ تظل مصر القديمة حاضرة - رغم كل مايبدو من مظاهر - فنراها تبعث إلى الحياة أمام أعيننا مع كل مندفة تقود إلى اكتشاف جديد.

ويتم نشر هذه الاكتشافات تباعاً في العديد من الدوريات الفرنسية وغير الفرنسية، وبالتدريج يزاح الستار عن حضارة كانت من الناحية العلمية في طيّ النسيان قبل قرن من الزمان، وهو مالا ينبغي أن يغيب عن بالنا.

وقبل أن تتطرق إلى تاريخ هذه الحضارة نرى من الضروري أن نرسم صورة للبلد الذي أنجبها، ونحن لا نرمى من وراء ذلك، تكريس عادات تقليدية متواترة، بل لأن معرفة الإطار الطبيعى، أمر ضرورى لكل من يريد أن يفهم تاريخ مصر وعادات سكانها.

٣ - تاريخ أرض مصر

سعى العلماء على مرّ الزمان إلى الكشف عن مدى تأثير البيئة الطبيعية في المجتمع البشرى الذي يعيش في كنفها، فقد سبق أن قال الإغريق بوجود مثل هذا التأثير، وكأن هيبوقراط يميز بين ساكن المرتفعات بقامته الطويلة وشجاعة ووداعة طباعه وبين ساكن الأراضي المكشوفة القليلة المياه متوتر المزاج وجامد المشاعر وصدعب المراس، ولكن لن تتورط في هذا الضرب من التعميمات الجسورة، ومع ذلك فتأثير البيئة في مصر واضح للعيان بماتركته

البيئة الجغرافية من بصمات، كما يتضح من الاتجاهات التي انتصاها تنظيمها الاقتصادي وتطورها السياسي، ويرجع الجانب الأكبر من أصالة حضارة مصر إلى أنها فريدة في بابها من الناحية الجغرافية.

إلى أن أتى القرن التاسع عشر الميلادي، ومن بعده القرن العشرون، بتغييرات جوهرية في حياة رادى النيل، فشيدت المسدود التي زادت أهميتها بمرور الزمن، في الوقت الذي دخلت فيه وسائل المواصلات السريعة، لقد أثرت عوامل جغرافية ثالاتة في المجتمع المصرى: (١) مصر واحة،، (٢) مناشها هو مناخ إقليم الصحراء الكبرى (٢) طول الوادى عشرة أضعاف عرضه على وجه التقريب.

ومنذ جرتييه F. Gauticr المني المنافرات التي لا يجادل فيها أحد، بل إن كلمة واحة ذاتها مصرية القولات التي لا يجادل فيها أحد، بل إن كلمة واحة ذاتها مصرية الأمسل، ولكن نود التأكيد على أن مصر من واحات إقليم السحراء الكبرى، ومن المعتاد أن ينال مدى تأثير هذه الحقيقة التاريخية على حضارة مصر أقل مما تستحقه من المقمام، فالواحة ليست بقعة خضراء، فوق سطح أصفر فحسب، كما اعتدنا أن نتصورها من خلال خرائط الأطلس، إن وجود كما اعتدنا أن نتصورها من خلال خرائط الأطلس، إن وجود الواحة يرجع إلى مجموعة من المقومات الطبيعية والبشرية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً، فإذا غابت إحداها غابت الواحة عن الوجود، وعدد

هذه القومات ثالاتة من ظروف إقليم الصمراء الكبرى المناخية: فالواحة تحتاج إلى ماء وترية يمكن استن اعها، وإلى العمل البشري، فالماء دون ترية يمكن استزراعها يعطينا بئراً وحسب، وترية يمكن استزراعها دون ماءهي محراء ومسب، والماء والتربة ألتى يمكن استزراعها لا يعطيا شيئا بدون العمل البشري، وهتي التربة الجيدة تحتاج إلى الري في مناخ يغلب عليه الجفاف. ومعجزة مصدر الوحيدة هي أن النيل هو الذي قدَّم معا الماء والترية التي يمكن استزراعها، وما عدا ذلك فيعزى إلى الإنسان،، وقد نندفع بسرعة ويسهولة، فتتحدث عن الظروف الفريدة التي توفرت للحياة على ضبقاف نهر النبل وننسس أن هذه الظروف قد خلقها الإنسان بفضل نظم الري. ولاشك أن مصر هي «هية النيل»، كما طل الناس يرددون منذ أيام هيرويون، بيد أن مصر هي من خلق البشير، أولاً وأخيراً، فالإطار الجغرافي يحمل منذ البداية بصيمات الإنسان، فبدونه يظل ناقصاً غير كامل، ولكن البيئة الطبيعية تركت بدورها بصيماتها على الإنسان. إذ ما أن تظهر الواحة إلى الوجود حتى تصبح شكلاً جغرافياً، بلغ حدا من التفرد، حتى أنه فرض يصيماته على السكان،

فلنتشاول بادئ ذى بدء كيف تحققت في مصر المقومات الأساسية الثلاثة الضرورية لحياة الواحة، ثم ننتقل فيما بعد إلى بحث مدى تأثير حياة الواحة على المجتمع البشرى المصرى،

الماء: ترتبط حياة الواجة بمشكلة المياء، والنيل في مصر هو. صاحب الفضل في حل هذه المشكلة. والنسق المعقد الذي يشكله ثهر النبل ظل غير معروف حتى عهد قريب، ويكفى في هذا المُقام أن نعرف أن النهر الذي ينبع من البحيرات الاستوائية الكبرى، فيتمتم بناء على ذلك بتصريف من مياء الأمطار الاستوائية تظل منتظمة على مدان السنة. ومن الراجيح أن اللياء الوافعة من البحيرات الكبري كائت ستصل إلى مصر بكميات غير كافية نتيجة ماتتعرض له من عمليات بخر أثناء جريانها في أحواض النيل السودائي، لو لم تدهم بحصة إضافية من المياه المدارية ومن مياه المبشة بصفة خاصة،، ويلعب الدعم المبشى دوراً حاسماً بفضل هطول الأمطار الموسمية على هضبة الحبشة، ويقف هذا الدعم المبشي وراء هذه الشاهرة التي تركت انطباعاً قوياً في أبناء العالم القديم، تعتى بذلك فيضان النيل. وبالنظر إلى المسافة التي يقطعها الفيضان إذ يبدأ رحلته من المناطق المدارية بحلول ماين/ يونيو -- إلا أنه لا يصل مصل قبل شهر يوليو، واعتباراً من هذا التاريخ يرتقم الغيضان من جراء المياه القادمة من الميشة. (وتبلغ الأمطار حدِّما الأقصس فيما بين يونيو واكتوبر، وهكذا فإن فيضان النيل هو فيضان صبيف، وهو أمر له أهميته القصوي في بلد يسبوده مناخ مسحراوي حيث تتركن درجات المرارة القصوي المتوسطة والمطلقة فيما بين شهرى يوليو وأغسطس فتغمر المياه

تربه مصدر في فترة تهدد فيها الشمسس باصابة كل شيء بالمعانية كل شيء بالمهاف، وخلال فصل الشتاء، يحافظ الدعم الاستوائي على انتظام مستوى النهر المنخفض فيوفر المياء اللازمة للأراضي المنزرعة، عن طريق رفع المياء بمختلف الوسائل (كما هو الحال في جميع الواحات)،

المتربة ، — لا يأتى النيل بالمياه وحسب، بل يأتى الفيضان محملاً بالطمى الذى انتزع من التربة البركانية بثمالى الحبشة، وفي مصر تساعد زيادة بطء مجرى النهر على ترسيب الغرين فوق الحقول عندما يغمرها النهر. إن الغرين بعد أن يضاف إليه الأبال — هو الذى يشكل تربة مصر ذات المصوبة العالية حتى الأبال ألا من المكن في الوقت الراهن أن تغل محصولين أو ثلاثة في العام الواحد، ومن هنا ندرك الأسباب التي بفعت المصريين — بعد أن لاحظوا أن الفيضان هو واهب الماء والتربة معا — الى تأليه في صورة الإله «جهبي»، ونظموا الأناشيد تكريماً له، ويقول أحدها: «تحية الك أيا «جهبي»، ونظموا الأناشيد تكريماً له، ويقول أحدها: المياة، إنك تخفي مجيئك في الظلمات (كان المحربون يجهلون الحياة الميام النيل)، وتغطى أمواهك البساتين. أنت واهب الحياة موقع منابع النيل)، وتغطى أمواهك البساتين. أنت واهب الحياة موسع وسعادة، والظهور تهتز من الضحك والأسنان تمضغ».

^{*} الدُبِال : مواد عضرية متحللة في الترية، (المهم الهفرافي بمهمع اللغة المربية)

الناس . — كما سبق أن لاحظنا لم يكن في وسع الماء والتربة وحدهما أن يخلقا الواحة المصرية إذ كان الأمر يحتاج أيضا إلى عمل البشر، وتم إنجاز هذه ألهمة منذ أن أصبح وادى النيل أهلا بالسكان، إذ أن الجفاف لم يزهف في حقيقة أمره على مناطق الصحراء الكبرى دفعة واحدة، إنما بالتدريج، وكلما اشتد المناخ جفافاً هبط جانب من السكان المقيمين فوق هضبة الصحراء الكبرى الشاسعة ليتجمعوا حول نقاط الماء، وبخاصة على مقربة من النيل، وهكذا يتقبل الوادي موجات متعاقبة من السكان، وهؤلاء السكان هم الذين ظلوا يشكلون صلب الشعب المصرى في العصور التاريخية، وسنتناول نيما بعد بالدراسة سماتهم الأساسية.

ومن ثمّ توفّرت لمصر منذ الأزمنة الغابرة من تاريخ البشرية، العناصر الضرورية لتحي الواحة حياة مزدهرة، كما طبعت هذه الحياة بدورها مجمل مجتمع البشر بقسماتها الواضحة، ويشدنا شداً ثبات الشعب المصري باعتباره «أقل شعوب العالم ثورية»، وهذه السمة ليست وهماً، فلنتذكر في هذا الصدد أن النظام السياسي المصري قد ظل علي حاله على مدى أربعة الاف سنة، مع فترات صاعدة وأخرى هابطة، لقد شجع على بروز هذه السمة حاجة البلاد إلى حكومة قوية سياسياً لتأمين الري، إذ لا تتحقق حاجة البلاد إلى حكومة قوية سياسياً لتأمين الري، إذ لا تتحقق الاستقادة المرجوة من فيضان النيل، إذا ارتفع مستواه أو النصفض أكثر من اللازم، ولكن من الضروري في المقام الأول أن

يكون توزيعه توزيعاً منتظماً . فعملية توزيع المياه هي أم المشاكل في كافة الواهات، ويحضرنا في هذا الشصوص تشريع المياه في وإحات شمال إفريقياً)، وقد فرضت هذه المشكلة على مصر أن تقيم السدود ويصفة خاصة القنوات والجسور مع حسن صبيانتها. ولا يمكن تأمين أعمال الصبيانة هذه إلا بإقامة سلطة مركزية قرية، تستطيع أن تعرض أعمال الصبيانة على مختلف المقاطعات. ومن ثم يرتكن النظام السياسي المسري بأسره على ضرورة مادية وجغرافية، لا تظير لها في المتمعات الغربية، وكان شعور المسريين بهذه المسرورة شعوراً قوياً، إن أقدم ما نعرفه من تصاوير الملك، تمثله وهي يقوم بشق قناة، وكأن الماء هي شغل سكان وادى النيل الشاغل. إن أول قائمة ملكية ومعلتنا تسجل ارتفاع منسوب فيضان النيل، على رأس الأحداث، قبالة كل سنة، فمياة البلاد كانت رهناً بمستوى هذا المنسوب، بل من المحتمل أن الضرائب كانت تقدر حسب الفيضان، ولم يقف تأثير الجغرافيا عند هذا الحدّ، بل يمكن القول أن المضارة المصرية قد سيطر عليها وسواس الماء. فالماء هو القريان الأمثل الذي يقدم المتوفى، إن الرسائل الغربية التي يبعث بها أحياناً الأحياء إلى الموتى يهديونهم قيها بحرماتهم من «سكب الماء»، إن لم يمتثلوا للأوامر المنادرة إليهم، فإلى هذا المدُّ كانوا يعتبرون الماء عنمسراً حيوياً. لا غنى عنه، كما أن نصباً جغرافياً يميز بين بلد وآخر حسبما كان

أهله يشربون ماء النيل أو ماء الآبار أو ماء الجداول أو مياه الأمطار، كما أن محرد نص آخر يقسم الآبار إلى أربعة أنواع مختلفة، وتبرهن هذه السمات على أن المصريين قد تأثرو بصفتهم من سكان الواحات سواء في حياتهم الإدارية أو في معتقداتهم الديئية أو أوصافهم، بل وفي لفتهم حيث تعرف اللغة المصرية أكثر من عشرين مصطلحاً للتعبير عن مفتلف اتجاهات النيل ومسألكه، وقد دفعتهم هذه الصفة بالذات إلى تقدير الأرض الصالحة للزراعة مقابل الصحراء المجدبة الحمراء، وليتجنبوا التعدي على الأراضى الزراعية أقاموا قراهم في الصحراء إذ تعدر تجميعها قوق الربي، الزراعية أقاموا قراهم في الصحراء إذ تعدر تجميعها قوق الربي، حماية لها من الفيضان، إن مصر بلد تتجمع فيها أماكن السكنى وهو مايعتبر سمة بارزة المشهد الريف، ونتيجة لضرورة جغرافية، وهو مايعتبر سمة بارزة الشهد الريف، ونتيجة لضرورة جغرافية، حيث فرض على المصريين أن يحتموا من الفيضان دون أن يبددوا حيث فرض الصالحة للزراعة إلا في أضيق المدود.

لقد طبعت مصربو) قع أنها واحة، كما طبعت حضارتها بمناخها الصحرارى في المقام الأول، ماعدا الشريط الساحلي في المدلتا. إن الهواطل الجوية * معدومة من التاحية العملية، (متوسطها ٢٣ مليمترا في السنة) والرياح جافة (عدا الرياح

^{*} أن التسالية - وهن ما يسقط من ماء السماء على سطح الأرض في سبور مقتلفة كالمر والثلج والبرد وغيرها،

مجمع اللقة المربية: المعجم الجغرافي (س٠٢) (المترجم)

الشمالية). وتتميز درجات الحرارة اليومية بفارق شاسع بين درجات الحرارة في النهار وفي الليل، ووصل هذا التقاوت إلى ١٠ أو ١٦ درجة منوية خلال فصل الشتاء. ومع ذلك لم يكن هذا المناخ الجاف هو المناخ الذي كان سائداً على الدوام في مصر فمنذ عام الجاف هو المناخ الذي كان سائداً على الدوام في مصر فمنذ عام ١٠٠٠ وحتى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أي منذ بداية العصر المحجري الحديث وحتى عصر الأهرامات الكبرى، كان المناخ أكثر رطوية، والساقانا منتشرة في الصحاري الحالية شرقى النيل وغربه، ويسرت هذه الرطوبة النسبية الانتقال التدريجي من اقتصاديات المديدي جامعي الغذاء إلى اقتصاديات المزارعين مربى الماشية. كما فتحت الباب أيضاً أمام عمليات التبادل بين أسيا وإفريقيا وبين النوبة ومصر على حد سواء.

واخيراً، فقد ترك مناخ أعالى حوض النيل آثاراً عميقة في إكراوجيا (أي في علاقة الأحياء ببيئتهم) حوض النيل الأدني، ولقد سبق أن لاحظنا أن الحياة في مصر مرتبطة كل الارتباط بالفيضان، إن مستوى الفيضان يحدده هطول الأمطار على مرتفعات الحبشة، حيث منابع النيل الأزرق والعطبرة والسباط، وإن الرياح الموسمية التي تهب خلال فصل الصيف قادمة من المحيط الهندي تغذي الهواطل التي تسقط على هضاب الحبشة من شهر مايو وحتى شهر سبتمبر لتصب في النيل الأزرق وروافد النيل الحبشية، فمن هنا ينطلق الفيضان، بيد أن الأمطار الموسمية غير الحبشية، فمن هنا ينطلق الفيضان، بيد أن الأمطار الموسمية غير

ثابتة، وبالتالى يصبح الفيضان متقلباً، سواء من حيث تاريخ بدايتة أو من حيث مدته وحجمه. وهذا التقلب كظاهرة مناخية قد دفع سكان وادى النيل المصرى إلى أن يقيموا بالتدريج نظاماً للمقاومة، وعمولاً إلى التحكم في الفيضان تحكماً فعالاً، فمن بين ثلاثين فيضان تم رصدها، تكاد تكون ثلاثة عشر منها فيضانات كافية، ومن ثم ينبغي التأهب تحسباً لفترات «نقص الفيضان» لاسيما وأن تعاقب الفيضانات السيئة أمر وارد، واضطلعت السلطة المركزية بمهمة الاحتفاظ في الشون الملكية بمخون غذائي لمواجهة التخطء وإذا لم تؤمن الحكومة في الوقت المناسب أعمال صبيانة النظام الدقيق المتحكم في الفيضان، وهو نظام عرضة اللاعطاب، فإن الفيضان يهدد باجتياح كل شيئ والعودة بالوادي إلى ماكان عليه في الأصل من أوضاع، فالنظام الطبيعي مشروط في مصر عليه في الأسل من أوضاع، فالنظام الطبيعي مشروط في مصر بالنظام السياسي، والفوضي هي دائما مرادف للمجاعة،

وأخيراً، تركت تضاريس البلاد الجغرافية بصمات غائرة في حضارة مصر، فلنتخيل أمبوباً طويالاً لَدُناً، وقد جهز أحد طرفيه بقمع مرشة، تلك هي صورة مصر، وهكذا ندرك أن سكان هذا البلد العجيب قد ميزيا بين الأمبوب، أي مصر العليا وبين القمع أي مصر السغلي، ولا يبلغ عرض الأراضي الزراعية قدراً معقولاً سوى في الدلتا، وإذا النتقلنة إلى الوادي فنجد أن عرضه لا يزيد عن بضعة كيلو مترات، ورغم أن طوق مصر يزيد على الألفي كيلو

متر، قان مساحة الأراضي الزراعية ليست سوي ثلاثان ألف كم٢ (حوالي ٧ مليون فدان) أوما يعادل مساحة يلجيكا مع يسطها على مايعادل شيعف شول قرنسيا، وكان لهذه الوضيعية أصداؤها على حياة البلاد السياسية والإدارية. لقد لاحظنا فيما تقدم نزعة الوحدة والاستقرار كمطلبين ملازمين لضبروريات الري وتنظيم الاقتصباد، وفي واقم الأمر فإن مصد شريط بالغ الطول ليس له من طريق سوى النيل، وكان يصعب ملى الملك أن يراقب السلطة المحلية التي قد تبعد عن عاصمته في بعض الأحيان بما يزيد عن الألف كيلومش فيستدعى الوصول إليها أياما طويلة من الملاحة النهرية وذلك في عصر كانت الجياد ذاتها غير معروفة، ومن ثمَّ فعا أن يصيب السلطة المركزية الوهن، حتى يتحول حكام الأقاليم، على القور، إلى مواهل مسفار مطلقي الصالاحيات، ومن ثم نري أن تاريخ مصر ممزق بين نزعة تركيز السلطة السياسية استجابة لمتطلبات البائد الميرية ونزعة التفتيت التي ساعد عليها امتداد مصير الفائق الطول، ومن هذا نشبات أهمية «الأقليم» في حياة مصر، فقد فُرض على الإقليم أن يعتمد في حياته على جهوده الذاتية بالنظر إلى المسافة القصية التي تفصل بينه وبين المركن الإداري، نمصر من حيث الضروريات الطبيعية، دولة على قدر كبير من تركيز السلطة المركزية، كما أنها تقوم في نفس الوقت، على اللامركزية الإدارية، وكنتيجة ثانوية لهذة الأوضاع، تقدمت مصر

بخطى سريعة في فنونالملاحة، حيث أن الطرق في مصر قد اقتصرت على الطرق النهرية، فقد عم استخدام السفن، وأضحت ضرورية، وأو لمجرد العبور من شاطئ إلى آخر، بل يمكن أن نذهب إلى أن الديانه نفسها قد تأثّرت بهذه الضرورة الطبيعية، فكان الصريون يعتقدون بالفعل أن الشمس تعبر السماء في نورق، بل وعلى الصعيد التقنى أيضاً كان لهذا المكن أصداؤه، فاهتدى المصريون إلى الدفة ذات المرتكز ولكن في المقابل جاحت العربة المرتون العجل من خارج البلاد،

وأشيراً كانت مصر بغضل موقعها عند الطرف الشرقى من القارة الإفريقية نقطة التقاء العالم الأسيوى والمتوسطى بالعالم الإفريقى، وشرع هذا الموقع يؤثر على الحياة السياسية المصرية مع مطلع العصر الفرعوني، وإن لم تُنْمُ كل إمكانياته إلا بحلول العصر الحديث، في أعقاب شق قذاة السويس، وتنمية إفريقيا المبنوبية والوسطى، فأضمى وادى النيل والبحر الأحمر أكبر طرق المبور من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق الأقصى وإفريقيا إلى أوروبا، وفي حقيقة الأمر وكما أوضعنا، فقد فرض طول البلاد، سواء على الصعيد السياسي أم على الصعيد الإدارى، أن تتوسط العاصمة إلى حدٌ ما البلاد، بحيث تصل سلطة فرعون إلى الوادى من أقصاه إلى أقصاه بون معوقات تذكر، وترع هذا المركز الحيوى مئذ العصر الثيني، بل ومئذ عصور ماقبل التاريخ على ما

يظن، إلى التمركن في منطقة منف، على مقرية من مدينة القاهرة - الطالبة، وبالقمل نجمت الإدارة اللكنة انطلاقاً من هذه التقطة، في مراقبة الدلتا وأعالي الوادي على حدّ سواء، وعندما إقام قراعنة الدولة الحديثة عامستهم في طبية كانوا يهدفون من بين ما يهدفون إليه، أن يقتريوا أكثر فأكثر من النوية، بعد أن توسعت فيها مصر كثيراً وهي التي كانت تمدّ مصر بالوسائل الضرورية -من بشر ومواد أولية - لتحقيق السياسة التوسعية التي تبدتها، واسوء الحظ كان موتع طيبة ينطوى على عقبة كأداء بالنظر إلى بعدها الكبير عن الدلتا، غير أن مصر بدأت مع بداية النولة المديثة تعانى من الأضرار الناجمة عن موقعها عند ملتقي طرق العالم، عندئد كانت امبراطوريات آسيا في أوج نشاطها التوسعي وشرعت تصطدم بمصير، ولكن سرعان منالاحت في الأفق مسيرة المنجة الهند و- أوروبية الثاثية، قادمة من الشمال إلى الجنوب، فحملت في الأخرى رجالها عند السواحل المسرية، وهكذا بدت ممس مهددة من ناحيتين عند جبهتها المتوسيطية، والضبطرت دفاعاً عن نفسها أن تحشد قواتها في الدلتا، وهكذا تشهد، اعتباراً من الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين بصغة خاصة تحركأ الركن ثقل مصدر الذي جنح إلى الاستقرار في الدلتاء ويمكن القرل أن الانحطاط البطئ الذي بدأ في هذه الفترة يرجع إلى عجن ممس عن إمسلاح نظمها الداخلية. ولقد اقتضت الظروف أن يكون

مركزها السياسي أقرب مايمكن من البصر المتوسط الذي أضحى مفترق ملرق العالم القديم، كما اقتصفت الظروف أن تتواجد مصر عنده بكل ما أوتيت من قوة، أي بكل ما تجلبه من موارد تجنيها من إفريقيا، وإذا كان الفراعنة قد أدركوا ضرورة إقامتهم في الدلتا، فقد عجزوا عن الحفاظ على وهدة البلاد التي كانت تستطيع وحدها أن تمكن مصر من الإضطلاع بدور فمَّال في العالم الجديد الذي بدأ يتضم للعيان. ومن ثمّ فإن ظرفا جغرافيا - وهو وجود مصن غيمن عالم اليدن المتوسط – قد فرض انتقال عاصمة البلاد مسوب الشمال قدر المستطاع، وإشمافة إلى ذلك، مَانٌ طَرِفاً جغرافياً أذر - وهو طول القطر - البالغ الامتداد - قد أعاق الفراعنة عن حكم البلاد حكماً فعَّالاً من مقرهم في الدلتا وأن ييسطوا نفوذهم بصفة خاصة على المتلكات الإفريقية، مصدر قوة مصد. وبعد أن الحمس مصد في واجهتها المتوسطية همسب، لم يعد في وسعها سوى أن تلعب دوراً ثانوياً على مسرح التاريخ في العالم القديم، ومن ثم رُخْر عالم مصر بالمفارقات، غنري جدب الصحراء يبرز ثراء الوادي، ويقف امتداد البالاد الذي لاحدٌ له كنقيض للرحدة التي فرضتها ظروف الحياة، ويشكل هذا المالم «خلفية» فريدة في بابها للمجتمع الذي كان مقدّراً له أن ينشأ على أرضها، ليزدهر قبل أن يندش، وكأن هيرودوت يدرك كل ذلك جيداً حين استهل كتابه في التاريخ بهذه العبارة: «إن

المصريين الذين يعيشون في ظل مناخ فريد، وعلى ضفاف نهر ينفرد بخاصية تميزه عن غيره من الأنهار، قد اتسموا أيضاً في كل شئ تقريباً، بعادات وتقاليد هي على النفيض من عادات وتقاليد هي على النفيض من عادات وتقاليد على وتقاليد غيرهم من بني البشر، وكان من الضروري التأكيد على أمنالة هذه البيئة حتى يمكن فهم هذا المجتمع الذي سوف نتناول الأن عناصره البشرية بالدراسة.

٤ -- السكان

منذ العصر الحجرى القديم الأدنى، وكلما عدنا إلى الوراء في غياهب ماقبل تاريخ الإنسانية بصفة عامة، نجد أن الإنسان قد سكن وادى النيل، ولكن من الصعب معرفة الأصول العرقية لسكان الوادى الأوائل. فالنذر القليل الذي وصلنا من بقايا العظام البشرية لا يساعد، في واقع الأمر، على التوصل إلى نتائج لا البشرية لا يساعد، في واقع الأمر، على التوصل إلى نتائج لا تقبل الجدال حول أصوابا الإتنية، كما لا يسعنا أن نعرف مدى استمرارية هذا الفرق بين غيره من الأعراق التي سكنت وادى النيل خلال العصر الحجرى الحديث، وبالفعل فإن نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى - حوالي عام ١٠٠٠ ق.م تتزامن ومرحلة ساد فيها مناخ جاف مناطق إفريقيا الشمالية والشرقية، عندئذ، فإن القبائل الرحل التي كانت ماتزال هائمة في ساڤانا الصحراء الكبرى، قرب نهاية العصر الحجرى القديم وخلال العصر الحجرى

القديم وخلال العصر الصجرى الوسيط، شرعت تميل إلى الهجرة، لتتمركز حول نقاط الماء. وفي هذا العصر على مايخلن تشكل الرصيد البشرى الذي أعمر مصر، فجاء بالأحرى أقل تجانساً، لاسيما بعد وقوع موجة أخرى من الهجرات الوافدة من الصحارى حوال عام ٢٤٠٠ ق.م، مع حلول طور جديد من الجفاف في أعقاب الطور الرطب للدور دون الطير للعصر الحجرى الحديث، ومن ثمّ فإن سكان مصر لم يشكلو أبداً عرقاً نقياً، وإذا نظرنا إلى أصوابهم فإنهم أساساً من عرق إفريقى، ويبدو بالفعل أن عنصرهم السائد ظل دائماً قريبا من غيرهم من سكان شمال وشرق إفريقيا، نذكر على سبيل المثال البچا في شرق إفريقيا والبربر في ليبيا، بل إن هذا الرصيد ذاته لم يبق نقياً، فقد والبربر في ليبيا، بل إن هذا الرصيد ذاته لم يبق نقياً، فقد اختلطت به بلا شك عناصر سامية منذ وقت باكر جداً، سواء والمحراء الشرقية.

وقديماً كان البعض يقضلون أن يبالغوا في تقدير الإسهام السامي ولكننا نجد أنه قد انصبهر في حقيقة الأمر في الكتلة العامة. كما يتبغى إضافة بعض الإسهامات السوداء والنوبية وإن ظلت محدودة الأهمية على مايبس، فالسكان منذ مطلع الدولة القديمة كانوا يتكونون من كتلة ذات تكوين واضح، تسربت إليه بعض العناصر السامية والنوبية، ولن يتغير السكان إطلاقاً على

امتداد آلاف السنين، ومن الشائع أن نشاهد هذا النمط القديم في ملامح القلاح المعامر، ومن ثمّ يمكن القول أن سكان مصر أفارقة في مجملهم وأفارقة بيض، وما تسرب إليهم من عناصر سامية من ناحية، وعناصر سوداء من ناحية أخرى، لم تكن أبداً من الكثرة بحيث تبدل من المظهر العام،

ومن الصعب، بل من المستحيل تحديد عند سكان مصر القديمة. وإكن استناداً إلى الوثائق اليونانية الرومانية، هناك شبه إجماع على أن عددهم كان يناهز السبعة ملايين نسمة. ومع ذلك ينبغى اعتيار هذا الرقم حداً اقصى، فقد شهد تاريخ مصر فترات زيادة في السكان، عرفت بتأسيس مدن جديدة، كما شهد في المقابل فترات إفقار من السكان، نجد صداها في بعض النمدوس، فنقرأ في أحدها: «أجل إننا نفتقر إلى النساء فلا حمل ولا هبل»، وعلى أية حال وبالنظر إلى تعداد سكانها للنخفض نسبياً، فإن مصر تتفق في هذه النقطة كل الاتفاق مع حضارات العصر القديم الكلاسيكي، بيد أن هذا الفقر الديموجرافي سوف يشكل عقبة كأداء أمام مصر عندما ستواجه تكتلات الأحلاف الأسيوية.

ه -- اللغة والكتابة

إذا تركنا جانباً التسمات البدنية العرقية، فإن اللغة هي السمة

المميزة الشعب من الشعوب، قما أصول اللغة المصرية إنن؟ ظل المتخصصون يتجادلون افترة طويلة بين قائل بأصولها السامية وأخريرى أن أصولها إفريقية، بل وذهب البعض إلى افتراض أن أصولها أقيائية! أما اليوم فيسود شبه اتفاق على أن المصرية والكوشية (اللغات السودانية) والبربرية واللغات السامية، تشكل كل منها مجموعة مستقلة عن الأخرى، وإن كانت جميعها مشتقة من لغة قديمة مشتركة، وهو مايفسر، في ذات الوقت، ماتلحظة من أن المصرية وبالتحديد بن المصرية واللغات السامية وبين المورية والمصرية، وهو مايجعلنا أيضاً في غنى عن الافتراضات التي كانت قد ظهرت - وعلى رأسها أفتراض الغزد - والتي تكونت في الماضي لتفسير أوجه الشبه هذه، ومن ثم ينتمي المدرى إلى غيره من شعوب إفريقيا البيضاء من حيث القسمات البدئية ومن حيث اللغة، على حدً سواء،

تواترت إلينا اللغة المصرية كتابة منذ العصر الثيني، أو حوالي عام ٢١٠٠ ق.م، ولذا تعتبر من أولى كتابات البشر المعروفة، ومن المفيد أن نطل عليها إطلالة سريعة، لقد سبق أن ألقينا نظرة على تاريخ فك رموزها، وعلى رأس مايشكنا إلى هذه الكتابة أنها نشأت نشأة محلية أصيلة، فلم تستعر كل ماتستخدمه من علامات هيروغليفية من عالمي الحيوان والنبات في وادى النيل فحسب، وهو يرهان على أن ظهورها ونموها كانا ظاهرة محلية، بل تصور هذه

العلامات أيضاً بعض الأنوات والأواني التي كانت تستخدم في مصير منذ العمس الأدني للحضيارات النجاسية الدجرية، وهو دليل على أن الكتابة هي بالقطع نتاج الحضيارة المصرية دون غيرها، وأنها قد نشبات على ضيفاف النيل. وقد ومبلتنا الكتابة في ثارث صور مختلفة، يطلق على الأراي اصطلاحاً الهيروغليفية، وكانت وقفاً على الأنصباب والعمائر، فتدون كل علامة بمفردها مع الاهتمام الفائق بتفاصيل الرسم، فالطائر على سبيل المثال لا بشنان إليه يخطوطه الجانبية وحسب، يل يشتني ملامحه الداخلية أيضناً مع تومنيه الأجنحة والعينين والمخالب الخ.. وعنى عن البيان أن تدوين هذه الكتابة كان يستغرق رقتاً طويلاً، حتى مع اختزال الرسم، لأن الكلمة الواحدة قد تتكون من خمس أو ست علامات مختلفة، ومن ثمّ فقد استخدم للمسريون منذ أقدم العصور كتابة مختصرة، تعرف استطلاحاً بالهيراطيقية (راجع الشكل رقم ١). وهي الكتابة التي اعتمدتها غالبية النصوص الأدبية والإدارية والقانونية المصرية التي بين أيدينا ، وأخيراً ، فقد تمَّ اختصار الهيراطيقية بدورها في العصس التأخر، فنشأت الديموطيقية، والتطور الذي طرأ على العلامات الديموطيقية بلغ حداً يستحيل معه التعرف على النماذج الهيروغليفية الأصلية، استخدم الخط الديموطيقي في تدوين العديد من الوثائق القانونية الهامة التي تعتبر غالبا مصدرتا الوحيد عند دراسة بعض المؤسسات، ومن



ماضات هيريةلينية عثمالة (الأسرة ۱۸)

THE SERVICE SERVICE

ملامات فيريغلينية يسيطة (الأسرة ١٢)

وه ووالمعلل مع ربية موادك المربية والقرن الثالث ق . م)

شکل رائم ۱

لللاحظ أن الكتابة المصرية القديمة، سواء بالقط الهيروغليفي أو الهيراطيقي أو الديموطيقي – لم تتطور آبداً وظلت متمسكة بأصولها الأولى، رغم ماتمتلكه من علامات بسيطة، ولم تتحول أيداً إلى الكتابة الألفيائية، شائها شأن الفينقية واليونائية واللغات الحديثة، فنظام الكتابة للصرية تركيب معقد في واقع الأمر، قمن تاحية، كان بوسعها على الدرام ان تصور الماديات بصورها. فإذا أردنا كتابة كلمات مثل مجداف وقوس ومحراث الخ.. يكفي أن نرسم مجدافاً وقوساً ومجراثاً. ويعرف هذا الضبرب من الكتابة بالخط التصويري، وشاع استخدامه في الكتابة المصرية على منَّ العصبور، بيد أن المُط التصبويري لا يصبلح للتعبير عن كل يتسن. فعلى سببيل المثال كيف يمكن تصوير الأفعال كالمشي والعَسُّ والصعود أو الكلمات المجردة كالفكر والحب الخ،، والشروج من هذه المشكلة، ملبق المصريون قاعدة اللغز المصور، فقاموا بتفكيك الكلمات المجردة إلى عناصرها للكونة التي يمكن تمثيلها بأشياء لها صبوت مماثل، ولتوضيح الأمر نختار مثالاً باللغة الفرنسية. كيف نكتب إذن كلمة DÉTOURNER - معناها: أدار (رأسه) -يبدل الاتجاء - حولٌ (نظره) - بالإعتماد على سبيل الأسلوب المصرى، يمكن أن نقسم الكلمة إلى ثلاثة عناصر ونرسم على التوالي «نرد» "DÉ" ثم برج "TOUR" وأخيرا أنف "NEZ". (راجع شكل ٢ وشكل ٣). انه مبدأ الكتابة الهيروغليقية ذاته كما استخدم

في العصير الثيني لكتابة أسماء الأعلام - ولكن هذا النظام كأن في حاجة إلى إمْمَافَات حتى يصبح منالحاً للاستخدام، ويادئ ذي بدء، قد تكون العلامة كقيمة صوتية مصدر غموض والتباس، فقد يفسر القارئ على سبيل المثال مدورتي البرج والأنف تفسيراً خاطئاً ويقرأهما «قلعة» و«فتحة الأنف» مثلاً. وتجنباً لهذه الأشطاء أشناف للصديون علامة هجائية وضعوها أمام العلامة المقطعية أوخلفها لتحديد قراشها وقياساً على ذلك سنضع حرف "T" أمام "TOUR" وحرف "Z" بعد "NEZ" وأخيراً كانوا ينهون الكلمة بعلامة لا تقرأ وإن كانت تحدد القراءة المطلوبة بالإشارة إلى المعنى للكلمة، من خلال فكرة، كفكرة الحركة على سبيل المثال أو الشيش شفة أو القوت الغ.. وكانت هذه العلامات محددة بشكل ثابت ونهائي، وإذا عدنا للمثال الذي ضريناه الضفنا إلى الرسومات السابقة رجلاً يدير رأسه تومنيحاً لفكرة وأداره التي تنطري عليها الكلمة التي كتبناها صوتية، فالكتابة المسرية تشمل إذن علامات منوتية على غرار حروفنا الهجائية إلى جانب الملامات التصويرية التي لا يوجد ما يناظرها في لغاتنا، وإن ظلت الكتابة المدينية محتفظة بها، وإشنافة إلى ذلك تتكون بعض العلامات المسرتية بدورها من حرفين ساكتين أو ثلاثة حروف ساكنه للرسم الواحد، إنها العلامات المقطعية (راجع شكل ٤). ويعتبر نظام الكتابة الهيروغليفية مرنا جداً، إذ يمكن أن تبدأ

الكتابة من اليمين أو من اليسار، على حد سواء، بل وأيضاً من أعلى إلى أسفل. وهذاك مايشيه الإملاء، وتيسر الذاكرة عملية القراءة. وأخيراً، نجد أن المازمات المقطعية وهي كثيرة جداً، (إذ تبلغ عدة مئات من العلامات الشائعة)، يلحق بها دائما علامة هجائية ولحدة أو اثنتان أو ثانث، تعزيزاً لها ومعيناً على القرامة. بيد أن المسرى لم يصل إلى حدّ اختراع الكتابة الهجائية كما تعرفها اليبيم، ولم يكتف وحسب برفضه القاطع التخلي عن العلامات التصويرية والعلامات المقطعية ومعولاً إلى اكتشاف الأبجدية، بل بيدي واشبحاً أنه ابتعد عنها، أكثر فأكثر، لقد تباعدت الكتابة الممرية في العصر المتأخر عن الكتابة الهجائية، بعد أن شباعشت من العالمات المستشدمة، وفي مقدمتها العالمات التصبويرية، بالمقارنة مع كتابة النولة القديم التي لم تسرف في استخدام العلامات. وأشيراً، لم تُقُدم الهيراطيقية والديموطيقية على تبسيط الكتابة بحذف العلامات غير الضرورية لكنها استخدمت خطأ يوفر كتابة أسرع، أما بالنسبة لقواعد اللغة فتتمين المصرية بأن موضع كل كلمة من كلماتها، له ترتيبه الصارم الذي لا يحيد عنه، فتتعاقب الكلمات في المعتاد على النحو التالي: القعل قالقاعل ثم المقعول المباشر وأخيراً المقاعيل غير المباشرة، إن حالات الإعراب كما عرفتها اليونانية واللاتينية لا وجود لها في المسرية، ولكنها تنفره بمشكلة خامعة بهاء ألا وهي، أنها تفتقر

إلى أدوات العطف والوصيل، ويجد المرء صنعوبة في تحديد الرباط، الذي يربط الجملة بما يسبقها أو يليها،

بعد أن تم فك رموز الكتابة أصبح فهم الوثائق المصرية القديمة متاحاً وباتت تكون في الوقت الراهن أهم مصادر التاريخ المصري وهي مصادر شديدة التنوع، وتضمه مسارد السير الذاتية المنقوشة بالهيروغليفية على اللوحات الحجرية وسطوح جدران مقابر الأفراد، والمسارد الرسمية للحملات الملكية وقد نحتت في الغالب على جدران المعابد، والقوائم الملكية المدونة على ورق البردي أو المنقوشة على الحجر، والنصوص الادبية أو الإدارية المكتوية بالخط الهيراطيقي على ورق البردي أو الألواح الخشبية الصغيرة أو أخاف الفخار أو الحجر (الأوستراكا). كما أن هذه المسادر هي أحياناً مجرد اسماء حفرت على أشياء صغيرة أو جعارين أو تماثيل صغيرة، وبفضل هذا الحشد من الوثائق، أمكن إعادة كتابة تاريخ مصر كما سنعرضه الآن،

الباب الثاني تـــاريخ مصـــر

قبل حوالى مأنة سنة كان كل مأنعرفة عن تاريخ مصر يتلخص فيما نقله إلينا بعض الكتاب الإغريق الذين سبجلوا بعض أسماء الفراعنة وسربوا عنهم نوادر -- كانت أغلبها فاضحة، كما كان بين أيدينا مأتبقى من مصنف مأنتون، وهو عبارة عن قائمة لملوك مصر موزعة على ثلاثين أسرة، وماعدا ذلك كنا لا نعام شيئاً، إن أكتشاف شميوليون قد سمح فيما بين ١٨٢٧ والوقت الراهن بشغل الإطار الفارغ الذي وصل إلينا، وهكذا غدا تاريخ مصر حقيقة واتعة، وعلى أساس ماتلناه، فإنه لا ينبغي مع ذلك أن تعتقد أن مأنعرفه عن تاريخ مصر يماثل مأنعرفة عن تاريخ وما أو اليونان على سبيل المثال، فليس أمامنا من سبيل عند إعادة صياغة تاريخ مصر سوى الاعتماد على القوائم الملكية التي خلفها المصريون، مصر سوى الاعتماد على القوائم الملكية التي خلفها المصريون، والاثار القائمة التي قارمت عوادي الزمن أو التي عُثر عليها أثناء والاثار القائمة التي قارمت عوادي الزمن أو التي عُثر عليها أثناء

ملوك مصر عن أعمالهم الخاصة، ولكن الرواية التاريخية، بما للفظ من معنى دقيق في الوقت الراهن، لا وجود لها على الإطلاق، ومن ثم فالتاريخ الذي يعاد صياغته هو تاريخ جاف مَسْيل جداً. وأغلب ماتوصلنا إليه لا يتعدى أسماء وتواريخ، هي عناصر هشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه التواريخ من ناحية هي أحيانا اقتراضية إلى حد كبير، وأن ترتيب خلافة الملوك غير موثوق فيه من الناحية أخرى، وبالكاد نجمت بعض الشخصيات التي عُرفت بسعة نفوذها أن تطفو على سطح الرتابة المتجانسة التي مازالت تغلف الكثير من عهود فراعنة مصر، وبالطبع قد يقول البعض أن الكثير من هؤلاء الملوك المجهواين لم يشكلوا أبدأ سوى أهمية تسبية. وملى سبيل المثال، فماذا يضير تاريخ فرنسا أن شخصيتين مثل «شيليدريك» الثالث childericIII أو «فرانسو) » الثاني François II المتفيا تقريبا دون أن يتركا من أثر في ذاكرة الإنسانية سوى اسم وتواريخ بداية حكمهما ونهايته. أما بالنسبة لمصر، فالأمن أشدٌ خطورة، وهل يمكن أن تتصور تاريخاً لقرنسا لا ينبس بكلمة واحدة عن «حرب المائة عام» أو «الحروب الدينية» أو ثورة ١٧٨٩، تاريخاً يكتفي بما يقدمه من معلومات عن القديس لويس (التاسع) وفيليب أغسطس وفرانسوا الأول، ثم عهود هنري الرابع واويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر لينتهي بعصر الإمبراطورية، ويقتقر إلى وثيقة واحدة قد تلقى الضوء على

مايتشللها من فترات. وإذا أمكننا تصور مثل هذا التاريخ لتوصلنا إلى صدورة تشبه إلى حد كبير تلك التى نعرفها عن تاريخ مصر في الوقت الراهن. إن العصور المجهولة جهازً مطبقاً أو شبه المجهولة تشكل قرابة ثلثى تاريخ مصر. ومن بين الأسرات الثلاثين التي ذكرها مانتون فإننا لا نعرف منها بالقدر الكافى سوى إحدى عشرة فقط، ويطبيعة المال، تقف عصور الانتقال والاشطرابات التي لا نعرف عنها شيئا أو تكاد، على رأس قائمة ماكنا نود معرفته، وإذا غضضنا الطرف عن هذه الثغرات عندما نتناول تاريخ مصر بالدراسة، لرأينا من منظور يخالف واقع الأمر، فقى مصر كما هو المال في أي مكان أخر، كانت عصور النظام والإشعاع المضاري أكثر ندرة، بينما عصور الإضطراب والفوضى التي تفتقر إلى الشموخ والعظمة هي الأطول، وربما والفوضى التي تفتقر إلى الشموخ والعظمة هي الأطول، وربما إمكانية فهم عصور الإزدهار فهماً تاماً،

منذ مانتون، والملوك الذين حكموا مصر يناهز عددهم المائة وأربعة وتسعين ملكاً، يوزعون على ثلاثين أسرة، لكن ينبغي في هذا الصدد أن تتناول لفظ أسرة بمعناه الضيق، فلا يعني انتساب عدد من الملوك إلى أسرة واحدة، انهم يتحدرون من جد واحد، كما أننا لا تلاحظ في كثير من الأحيان علاقة القرابة التي تربط أحد الفراعنة بخليفته. وأخيراً فإن مختلف الأسرات ليست كلها على

نفس القدر من الأهمية فيعضبها وهمية كالأسرة السابعة، أو عاميرت بعضها البعض الأخر كالأسرات الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والشامسة والعشرين، ولا تضم غيرها سوى عدد محدود من الملوك، فتتكون الأسرة الثامنة والعشرون من ملك وأحد، والرابعة والعشرون من ملكين، في حين تناهز غيرها من الأسرات العشرة ملوك كالأسرة الرابعة عشرة التي تضبم أربعة عشر ملكاً، وبالنظر إلى مايصادف المرء من صعوبة ليجد طريقة عبر هذا العدد الهائل من اللوك الذين لا تعرف عن معظمهم سوي الإسم، قسم العلماء تاريخ مصر إلى أربعة عصور كبيرة : الدولة القديمة وتشبم الأسرات الثالثة والرابعة والشامسة والسادسة، والدولة الوسطى وتضم الأسرتين الحادية عشرة والثامنة عشرة، والنولة المديثة وتميم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وأخيرا العصن المتأخر الذي يبدأ بالأسرة المادية والعشرين ويمتد حتى الغزو اليوناني، أما كبري عصور الاشتطراب فهي: ١ -- العصير القاميل بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وهو عصر ثورات اجتماعية وحروب أهلية ويمتد من نهاية الأسرة السانسة وحتى منتصف الأسرة الحادية عشرة، ويطلق عليه عمس الانتقال الأول. ٢ -- العمس الشامس بين اليولة الوسطي والنولة المنيثة وهو مصس حروب أهلية وغزو أجتبيء ويطلق عليه عصر الانتقال الثاني أي عصر الهكسوس على اسم الغزاة، أما الأسرتان الأولى والثانية اللتان تكونان مايعرف

بالعصير الثيني، نسبية إلى هاصمة البلاد، فقد وضعتا على حدة وترتبطان عادة بالغثرة التي تعرف اصطلاحا يعصر ماقبل الأسرات الذي يسبق مباشرة الاتحاد التاريخي للصر، وعلى كل حال فمن الصعوبة بمكان أحياناً أن نميز بين هاتين الأسرتين الأوليين وعصس ماقيل الأسبرات وبين عصس ماقيل التاريخ بمعنى الكلمة. فكل ماتعرفه عنها مستمد من أشياء يسيطة أو منونات قصيرة وهي ألقاب أو أسماء أعلام لا تقدم سوى القليل عن تاريخ هذه الفترة، وأخيراً ظهر في السنوات الأخيرة اتجاه إلى الفصل بِينُ «النولة الحديثة» و «العصر المتأشر» بعصر انتقال ثالث، يضم الأسرات الصادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، ونظرا لحدود هذا الكتاب المتواضعة المنظررينا إلى تناول تاريخ مصدر في عجالة سريعة وسنعرض له في الإطار المختصر لثلاثة أقسام أكثر شمولاً، أما القسم الأول وعنوانه العصبور المظلمة فيقطى الفترة المتدة في العصس الحجرى الحديث إلى نهاية الأسرة الثانية ، والقسم الثاني عنوانه مسس الكلاسبيكية ويتناول بالدراسة الدولة القديمة والدولة الوسطى والنولة الحديثة، وأخيراً يتناول القسم الثالث وعنوانه عصين الانجطاط الفترة المندة من الأسرة العشرين إلى ماقيل غزو الاسكندر لمس،

الغصلالآول العصور المظلمة (ما قبل التاريخ - العصر الثينى)

١ -- الترتيب الزمني،

المشكلة الأرابي التي تواجهنا يشان هذا العصر الموغل في القدم هي مشكلة الترتيب الزمني، فمتى بدأ على وجه التحديد التاريخ والمضارة في مصر؟ وللوصول إلى حل لهذه المشكلة لا تمتك سوى عنامس قليلة، وبالفعل لم يسجل المسريون على آثارهم، كما هو حالنا الآن، نظام ترتيب زمني موحد لتقويم متصل، قلا يقولون مثلاً «العام ١٦٢٠ ، في ههد الملك فلان..» بل: «العام الرابع من حكم الملك فلان..» وكلما اعتلى ملك جديد العرش يبدس من جديد في العام الأول.، وترتيباً على ذلك فمجرد تحديد تأريخ اعتلاء أول ملك معروف عرش البلاد بالاعتماد على الصبابات المصرية، يتطلب منا معرفة مدة حكم جميع الملوك الذين حكموا مصير، غير أثنا لا تعرف فحسب مدة كل حكم على هدة وعلى وجه اليقين، بل نجد علاية على ذلك أن عدداً من الملوك في فترات الاشتطراب، قد تولئ المكم معاً وفي أن واحد. ومن ثمّ فالاعتماد على مجرد عملية جمع مدد الحكم المعروفة، أن يؤدى سوى إلى بيانات مضللة، ولكن لمسن الحظ اعتمد المصريون

حساب السنة الشمسية عندما قاموا رسمياً بتقسيم الزمن إلى فصول وشهور وأيام، كما اعتمدوا أيضاً حساباً قمرياً للأعياد الدينية، تتكون السنة الشمسية من اثني عشر شهراً والشهر من ثلاثين يوماً يضاف إليها أيام النسئ الخمسة، التي أملق عليها الإغريق ايباج مينوس épngomònes - ومن ثم يصبح مجموع أيام السنة الشمسية ثلاثمانة وخمسة وستين يوماً ، تلك هي القاعدة التي تنهض على أساسها جميم حسابات الترتيب الزمني المسرى الحديث. وفي الحقيقة كانت السنة المسرية أمسادُ سنة نراعية على مايفترض، وكانت بداية السنة تتفق واليوم الأول من أيام القيضان وهو وضبع منطقي في بلد يتوقف كل شبئ فيه على النيل، ومن للحتمل أن تحركات النيل كنانت في بداية الأمر الأساس المعتمد الوحيد لحسباب السنة المصرية، ولكن سرعان ما لاحظ المصريون – وريما منذ عصر ماقبل التاريخ – أن يوم بدء القيضان يتفق أيضاً مع حدوث ظاهرة فلكية، إذ يتزامن في هذا اليوم ظهور نجم الشعري اليمانية في الأفق مع الشمس، وهذا النجم يُعرف عند الإغريق باسم «سوتيس» و«سيريوس» عند علماء الفلك المعاصريين، عنبئذ اعتبرت هذه الظاهرة مثل ظاهرة الفيضان نقطة بدء السنة. ومن الأن فصاعداً حدّدت ظاهرتان بدء السنة المصرية، إحداهما طبيعية وترتبط بالقيضان وهي غير دقيقة إلى حدُّ ماء والأخرى قلكية وترتبط بتزامن ظهور نجم في

الأفق مع الشمس في أن واحد، غير أنه، كما اتضح لناء كانت السنة المصرية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وسنتن بوماً، في حان نعلم أن السنة الشمسية الحقيقية تتكرن من ثلاثمائة بخمسة وستين يوماً وربع اليوم، فالسنة المصرية تتأخر أربع وعشرين ساعة عن السنة الشمسية الحقيقية كل أربع سنوات، ومن ثم أن تترامن الظواهر الثلاث، وهي شروق الشمس وشروق الشعري اليمانية وبداية القيضان، في أن واحد على رأس السنة للصرية إلا بعد إنقضاء ستين وأريعمائة وألف سنة، وهو مايعرف بدورة الشعري اليمانية, ومن ثم كان علماء الفلك المعاصرون لا يحتاجون إلا إلى أن يحددوا عدد مرات تزامن الشروق الاحتراقي للشعري اليمانية فعادً مم بداية شهر يوليو -- أي بداية الفيضان - عند خط عرض منف، حتى بهتنوا إلى التاريخ الذي يقترض أن المسريين قد يدس عنده حساباتهم، وحدث هذا التطابق ثلاث مرات على امتداد الضمسة آلاف سنة السابقة على ميلاد المسيح: (١) في السنوات ١٣٢٥ - ١٣٢٧ ق.م، أيام ألأسرة التاسعة عشرة (وكان الكتبة المصريون قد سجلوا هذا التطابق). (٢) في السنوات ه ٢٧٨ -- ٢٧٨٧ ق.م، قرب نهاية العصر الثيني، (٣) في السنوات ٥٤٢٤ - ٢٤٢١ ق.م في غياهب ماقبل التاريخ، وظن البعض أنهم لاحظوا وجود إشارات إلى السنة الشمسية في «متون الأهرام»، والماسف يصعب تحديد تواريخ هذه المتون بكل ثقة. وريما كانت

موغلة في القدم ومن ثم «تصبح الإشارة إلى السنة الشمسية دليلاً على أن هذه السنة كاتت مستخدمة قبل عام ٢٧٨٥، مع ترحيل عملية اكتشاف التقويم إلى دورة الشعرى اليمانية السابقة أي عام ٥٤٢٤، على وجه التقريب، ولكن بالنقلر إلى أننا لم تعرف هذه المتون إلاً من خلال نسيخ تعويد إلى عام ٢٤٠٠، قمن المحتمل أيضماً أن العمل بالسنة الشمسية التي تشير إليها المتون قد بدأ قبل ثالثة قرون من الزمن أي حوالي عام ٢٧٨٥، وقد ساد اعتقاد شبه عام على أن التقويم الشمسي قد رأى النور فيما بين ٢٥٤ و ٤٧٤٢ قبل الميلاد، أما فكرة أن المصريين ريما لم يأخذوا به على مايظن، قبل عام ٢٧٨٥، فلم تظهر إلا منذ عهد قريب جداً. وكانت خمسوسيات التقويم المسرى ذات فائدة عظيمة للباحث، وبالفعل ويمرون الزمن أخذت القوارق بين السنة القلكية المضبوطة شبيطاً دقيقاً والسنة التي اعتمدها المسريون يزداد خطورة، فيعد أن كان أسيوها، منار شهراً ثم شهرين متى انقلبت قصول السنة وتزمزهت ليقع مبيف الثقويم الرسمي في قلب الشتاء المقيقي، وغنى عن القول أنه كان من الصعب الا تسترعى هذه الظاهرة الغريدة انتباه المكتبة المصربين، فقد ومسلتنا شمعوص تسجل ملاحاظتهم عن الفارق بين الشروق الاحتراقي للشعري اليمانية وبداية السنة الرسمية (لاسيما وأنها كانت تعين المسريين على تحديد الأعياد الملكية). وسأعدت ملاحظات الكتبة علماء الفلك

المعاصريين في تحديد تواريخ المراجعة والتحقق، وهكذا أمكن تحديد تاريخ سنوات حكم بعض الملوك بكل يقين: ومنهم أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة (سنوسرت الثالث) وملكان من ملوك الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الأول وتحوتمس الثالث).

وقصارى القول، ويقضل الترتيب الزمني القلكي، فإننا تعرف عن يقين تواريخ سنى حكم ثلاثة من ملوك مصر والتواريخ المحتملة ليدء التقويم في مصر, وإذا وقفنا بين التواريخ التي حصلنا عليها عن ملريق علم الفلك وبين التواريخ التي توفرها لنا قوائم لللوك (قوائم مانثون وقوائم الوثائق المصرية) وسلسلة الأنساب والتزامن مع تاريخ الشعوب الجاورة لمصر، اهتدينا إلى تحديد مستهل القرن الثلاثين قبل الميلاد كبداية لتاريخ مصر. وقد امدّنا المنهج المديث للعروف باسم «الكريون -- ١٢١٤ أو الكريون المشمّ» وسيلة للتحقق من الترتيب الزمني التقليدي، وهو منهج يصعب تجاهله لمعرفة أقدم تواريخ مصر عهداً، ويستند هذا المنهج إلى المبدأ القائل بأن كل كائن حي يحتوى على كمية محددة من الكريون المشم، وأن هذا النشاط الإشعاعي يتناقض، إعتباراً من وفاة القرد، وفقاً لمُنحثى ثابت أمكن حسابه. ويالنظر إلى أن النشاط الإشعاعي الطبيعي للكائن المي معروف، فإذا أردنا تحديد عمر عينة محددة، فما عليتا سوى ان تحسب مقدار تشاطها الإشعاعي، ومن العينات المستخدمة البقايا العضوية: من

أخشاب ونباتات وشعر ولحم وعظام متكلسة وأصواف الخ.. التى تم العثور عليها أثناء الحفائر. وبغضل رفع كفاءة الأساليب التقنية المستخدمة، جرى حديثا (١٩٧٦) إعادة تقييم تغيرات تواريخ «الكربون - ١٤» (ك ١٤) ومراجعتها. واتضح أن تواريخ ماقبل التاريخ وماقبل الأسرات تعود إلى أزمنة أبعد مما كان يظن من قبل، وهي بالنسبة لمصر على النحو التالي حسب الترتيب الزمني الملق:

الفيوم «ب» (المجرى المحديث) حوالي ٥٧٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م
العمرى (المجرى المديث) حوالي ٢٥٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م
نقادة ٢ (ماقبل الأسرات) حوالي ٢٥٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م
حماكا (الاسرة الأولى) حوالي ٢٠٠٠ ق.م
سنفرو (الأسرة الرابعة) حوالي ٢٨٠٠ ق.م
سنوسرت الثالث (الأسرة الثانية عشرة) عوالي ١٨٠٠ ق.م
إن التواريخ التي تتوصل اليها، على هذا النحو لتؤكد لمي
مجملها صحة الترتيب الزمني الذي سبق الأخذ به، اعتماداً على
مايعرف اصطلاحاً بتواريخ الشعرى اليمانية، إن تحديد عام
مايعرف اصطلاحاً بتواريخ الشعرى اليمانية، إن تحديد عام
مايعرف المحديثة، لا ينبغي أن يخدعنا، فهر تاريخ تقديري
وأصطلاحي، يحدد البداية فحسب، وهي ليست بداية الكتابة على

المعروفة. إن حضنارة مصن هي في واقع الأمر أقدم عهداً من هذا التاريخ، فعدم اكتشاف وثائق مكتوبة سابقة على ٣١٠٠ ق.م، لا ينهض دليلاً على أن مصر لم تكن بلداً متحضراً قبل هذا التاريخ، فمفهوم المضارة يختلف عن مفهوم الكتابة، بل قد يصل بنا الأمر، إلى القول بأن أهم الأزمنة بالنسبة لتاريخ المضارة في وادى النيل في تلك الفترة المتدة من الألف الخامس وحتى عام ٢٧٨٠ الذي يسجل بداية النولة القديمة. وبالفعل تشكلت في المقبة الممتدة بين هذين التاريخين؛ اللغة والكتابة والديانة والمؤسسات ثم وبعدة البلاد السياسية في نهاية المطاف، ومن هنا تصل إلى أهمية هذه الحقبة ومدى الفائدة المرجوة إذا عرفناها معرفة جيدة، وللأسف، ويسبب قدمها بالذات، فإنها أكثر عصور التاريخ للصرى غموضاً، ومع ذلك، فقد أمكن لبعض الوقائع أن تلقى بصبيصنا من الضوء على عصور التكوين هذه، وتدين بهذه الوقائم إلى فئتين من المصاس، إحداها أركيولوجية (أثرية) والأخرى إبيجرافية (خاصة بالنقوش)

بادئ ذى بدء، فلنتناول المصادر الأولى بالقصص والتمحيص، إذ أنها تتيح دراسة الجانب المادى لحضارة وادى النيل حتى فجر عصر الأسرات، ولأن أرض مصر، في الأماكن الواقعة بعيداً عن القيضان، هي أرض جافة جداً، فإنها تبقى على ما دُفن في باطنها، في حالة جيدة من الحفظ، ومع أعمال التنقيب المنهجية

التن أجريت في كل الأماكن تقريباً، وفي مقدمتها الصعيد، تم التعرف على أدوات البشر من أسلاف أبناء مصر في العصور اللحقة - عصور التاريخ المكتوب.

Y -- العصير المجرى القديم

سناد الاعتقاد لفترة طويلة أن مصدر لم تعرف والعصور المجرية؛ التي تم الكشف عنها في أوروبا . وثبت خطأ هذا الإعتقاد، إذ لم تعرف مصبر العصبر الحجري الحديث قصبب، بل عرفت أيضًا العمس المجرى القديم الذي سنعرض له في عجالة سريعة، إذ يستحيل في الرضع الراهن العارفنا أن تتحقق من وجوره رابطة مابين سكان وادي النيل في العصر الصجري القديم والعمس اللحق، وعلى كل حال كانت غاروف الحياة شديدة الاشتلاف، ولم يكن المشاخ واحداً، فكان أشد رطوبة، وأقرب مايكون إلى مناخ الأقاليم الاستوائية في الوقت الراهن. كان النيل يغطى أنذاك أرض الوادي باكملها، في حين لا يحتل الأن سوي تصنف مساحته، ومن ثم أقام الإنسان أماكن سكتاء فوق الأرض التي أمسيحت مسحراء فيما بعد. لقد أخذ المناخ يتدهور تدريجياً خلال نهايات العصير الصجرى القديم حتى استقر مع حلول العصير المجرى العديث عند نظام مناخى أقرب مايكون إلى مناخ المصير الحديث، لقد عرفت مصدر جميع أطوار العصد الصجرى القديم الأوروبي. فتوجد سحنة ماقبل شيليه وأخرى شيلية وثالثة أشواية. وسحنة للأوازية - موستيرية وسحنة مدستيرية وأخرى عاطرية ثم سحنة سبيلية. وأخيراً فإن الأورنياسية والسواتيرية والمجدلينية، تقابلها الحضارة القفصية والحضارة العروفة امتطادها بحضارة حلوان.

وهكذا يمكن القول أن وادى النيل كان أهاد بالسكان في مختلف العصور، وافترضت بعض الدراسات الصديثة أنها قدمت القرائن على أن «المصريين الأرائل» قد تفوقوا على بقية عالم البحر المتوسط فزرعوا الشعير والحنطة في مصر العليا عند نهاية العصر الحجرى القديم (١٢٠٠٠ قبل الميلاد)، أما الآن فقد عدل الجميع عن هذه الفرضية، ولكن يبدو من المؤكد أن المصريين كانوا يستهلكون الشعير في غربي الوادى خلال الألف السابع قبل الميلاد، إن لم يكونوا قد زرعوه بالفعل،

٣ -- العصبر المجرى المديث

برهنت أعمال التنقيب في السنوات الأخيرة عن وجود عصر حجرى حديث في مصر، فعرف الإنسان فن الصهر المصقول

(معجم الجيرارجية، مجمع اللقة العربية ص ١٩٩٠)

[&]quot; سَنَّدَة Facies : مجموعة الشراس المنشرية والمعنية أن العفرية التي يتميز بها سخران المدهما من الشر، تكونا في زمن جيوارجي وأحد أن ازمنة مقطفة تبعاً المروف التكوين وبيئة الترسيب.

والفرّف، إلى جانب زراعة الصبوب وتدجين الحيوانات قبل استخدام النماس بزمن طويل،

ويحلول العمس المجرى الحديث أخذت أحوال الوادي تتغير من جميع الوجوه، فأخذ المناخ يقترب أكثر فأكثر من المناخ الدالي، وتقلص النيل وانحسر من مجمل أرض الوادي، وأخيراً استوطن البشر أرض مصر تهائياً وسكنوها، وساد الجفاف المتاطق المتاخمة وتصحرت مما دفع إلى تمركز السكان فوق شريط ضبيق من الأرض التي خصبتها مياه النيل، ويمكن النظر إلى أقوام العصر الصجري المديث على أنهم بحق الأجداد المباشرون للمصريين الذين عاشوا في عصر الأسرات، ولم يتحدر هؤلاء بالتأكيد من جنس واحد، بل كانوا منذ ذلك الوقت محصلة مزيج أتماط بشرية من البحر المتوسط (الكوشيين الصاميين) وأخرى زنجية، وهذا المليط ناتيج في حد ذاته من أجناس العصير المجرى القديم الأعلى، وبالنظر إلى حقيقة أن سكان العصس الحجرى الحديث كانوا قد استقروا منذ هذه الأزمنة في أرض الوادى وصناروا مصريين حقأء فإنهم يصبحون خارج نطاق بحثثا واستقصائناً، وفي واقع الأمر، قإن الأرض التي كانوا يقيمون عليها أنذاك تغمرها في الوقت الراهن طبقة من غرين النيل تراكمت على امتداد ألاف السنين. إن ارتفاع منسوب المياء نتيجة هذه التراكمات جعل من المستحيل تقريبا القيام باعمال المفر

والتنقيب عند مستوى العصس الحجرى الحديث، وقد غاص هذا المستوى ليستقر عند قاعدة الربي التي تنهض فوقها المدن الممرية التي يرجع تأسيسها أحيانا إلى هذا العصر، ولكن لمسن الحظ أيقي الزمن على يعض الاستثناءات، إذ امدتنا يعض المواقع بما تعرفه عن مضارات العصير المجرى الحديث في مصس، وتتمركن هذه المواقع عند حواف الصحراء، ومن دلائل وجودها الجبانات ومخلفات الطهى على حدّ سواء، وتشكل هذه المُخلَفَات أكواماً ضحمة، تعود علينا دراستها بعظيم الفائدة. ويمكن أن نعش فيها على عظام حيوانات تساعدنا على تصور أنواع الحيوانات التي عاشت في هذا العصر، وأيضبا عظام الماشية وروثها، وهي دليل توصيل الإنسان إلى تربية الماشية، كما عثر أخيرا على وجه الخصوص على حيوب الشعير والحنطة، وهو مايدلٌ على نجاح الإنسان منذ ذلك الوقت المبكر في السيطرة على أرض وادي النيل وفاحتها، إذ أن هيوط المزارعين إلى أرض الوادي كان في رأينا إيدانا ببداية حضارة مصد القديمة، وسوف توضيح فيما بعد أن النور التاريخي الذي اضطلع به الملوك هو توحيد الأقاليم في بداية الأمس في ظبل سلطة اتصاديين متعاديين، يضم الأول الشمال ومصير الوسطى ويضم الثاني جنوبي الوادي، ثم تولوا في وقت لاحق دمج مملكتي الجنوب والشيمال في مملكة واحدة، والإقليم هو نواة الأسياس في

الاتمادات الأولى، وقد نشأ من التفاف البقاع الزرامية حول عاصمة إقليمية مسغيرة، وكان للفلاح الفضل الأول في تأسيس النواة التي شكلت مصر، ومن المفيد أ تلاحظ أن هذه النواة هي الركيزة التي نهض فرقها البنيان كله، وكانت قد بدأت تتشكل منذ العمس المجرى المديث أي في حوالي الألف الخامس قيل الميلاد، وإذ تذكر هذا التاريخ، إنما تسعى إلى عرض أفكارنا مع شيئ من الوضوح. فالتواريخ الوحيدة المؤكدة هي تلك التي يوفرها والكربون ١٤ المعايريء لحضارات الغيوم: ٥٠٠٠ و ٢٥٠ و ٥٠٠٠ + ١٨٠ ق.م والعمري: ٢٣٠ ± ٢٣٠ ق.م. كانت أنوات هنؤلاء المسريين الأوائل مصنوعة من الحجر فقط، ومنذ هذا الوقت المبكر تتميز هذه الأبيات الظرائي، يجمال القطع والصقل، وهي السمة التي ميزَّت على النوام صناعة الصجر في مصر، ولا يمكن تفسير امتلاك المرقيين المصرين ناصية فتهم منذ مطلع التاريخ المون إلا نتيجة التقاليد المتواترة المنمسرة من قاطعي حجر الظران الأوائل، فكانوا مكملين لهم، وريما كان من الأصبوب القول أنهم من نسلهم، إلى درجة أنهم استمروا يبدعون نفس الأشكال. أقام سكان الوادي في أكواخ على شكل تجمعات وسأرسوا تربية الصيوانات المنزلية، نذكر منها الثيران والخراف والماعز، كما تم استئناس الكلب الذي كان يعاون على مايظن في حراسة القطعان وفي القنص الذي كان يوفر إلى جانب الصيد النهري إضافة

لايستهان بها لغذاء الجماعات البشرية. كما تمرسوا على فالحة الأرض فعرفوا زراعة القمح والشعير، وتم العثور على أدواتهم الزراعية كالمعاول الحجرية والمناجل الظرانية وحفظوا الحبوب في مطامير من معلصال، وعرف أيناء العصبر المجرى المديث كيف يحوارن الحبوب إلى نقيق، فقد عثر على الأرجاء المسطحة التي استخدموها في طحته، ومما هو جدير باللاحظة أن طراز هذه المناجل والأرصاء مماثل للطراز الذي استخدم فيما بعد في العصور التاريخية، وأخيرا فقد عرف الناس منذ هذا الوقت الميكر دباغة الجلود وتسبج الحصيير والتسيج والحياكة ومستاعة السلال. وألمّ الإنسان بصناعة الفخار، وإن كانت في الواقم على قدر كبير من المشونة، كما نجح الإنسان في فلق العظام وتدبيبها وصنع منها الخطاطيف والأساور والإبر، وأخيرا فقد قدَّم للموتى منذ ذلك الوقت، مأيشيه الشيعائر، قدفتوا على مقرية من القري في حقر بيضاوية، ووسدوا على جنبهم، مع ثنى الركبتين أسفل الذقن، في وضع يعرف بوضع الجنين، ويأشتمنان، فقد مهدت حضارة العمس المجرى المديث الطريق أمام الحضارة المسرية بمعتى الكلمة، بأن زودتها بشتى عنامسها المادية، فيقضلها برن الإطار الطبيعي الإنساني لوادي النيل بإقامة المواقع الدائمة الأولى لاستصلاح الأرض باستزراعها،

في مصر مجموعتان حضاريتان من العصر الحجري الحديث، تقع الأولى في الشمال عند الطرف الجنوبي للدلتا، قرب الغيوم وفي مصر الوسطى، (وأهم هذه المناطق هي مرمدة بني سلامة والفيوم (مدرج ١٠م) والفيوم ب (المدرجان ٤م و-- ٢م) والعمرى). وتقع المجموعة الأخرى في الجنوب في مصر العليا، وأهم مناطقها في ديرتاسا، ومن الملاحظ أن مصر قد عرفت منذ ذلك الزمن السحيق مركزين حضاريين متميزين أحدهما في الجنوب والآخر في الشمال، الأمر الذي يفسر الأسباب التي دفعت المصريين إلى التمسك وافترة طويلة بتقسيم البلاد إلى جزئين وإن كانا لا يشكلان منطقتين متميزتين جغرافياً. فمناطق الدلتا الساحلية التي تتميز بمناخ البحر المتوسط لم تكن في هذه الأزمنة القديمة أهلة بالسكان على مايعتقد، ومن ثم بات التمييز بين الشمال والجنوب على قدر كبير من الهشاشة، ومن ثم يرجع هذا التمييز على مايفترض إلى أصول إثنية (عرقية) أو تاريخية بكل بساطة،

٤ -- العصر الإنبوليتي أو الكلكوليتي

فى أوروبا، يستطيع المرء أن يميز بوضوح تام بين العصر الحجرى الحديث، حيث يعتمد الإنسان على أدوات من حجر فقط، فيقطعة ويصقله، وبين العصر الإنبوليتي (أو الحجرى النحاسي) الذي يتميز بظهور المعادن الذهب أولاً ثم النحاس فالبرونز، أما في الشرق، وفي مصر على وجه الخصوص، فلا يبدر هذا التمييز على هذا النح من الوضوح في معظم الأحوال، إذ تفتقر العديد

من المتاطق الإنبوليتية إلى وجود المعادن. وهكذا لا ينبغي تصور حدوث ثورة مباغته تقصيل بين العصيرين، وغزاة يعيثون في أرض الوادى فساداً، يأتون على الأخضر واليابس، مستغلين تفوق اسلحتهم نظراً لأنها صنعت من المعادن، لينزلوا بأهل البلاد الأصليين الهزيمة ويتسينوا عليهم، وفي الطبيقة فإن الانتقال من عصير إلى عصير كان غير محسوس، ولو كانت المعادن قد جلبت إلى مصدر من الخارج، وهو احتمال غير مؤكد على كل حال، فإنه لايوجد مايدفعنا إلى الافتراض أنها قد جاءت في ركاب غزوة خارجية، ومع ذلك لم يغير ظهور النجاس شيئا من أساليب قطع الظران، فهو الأداة الأصلية، في الماضي كما في المستقبل، لقد حدث ماحدث وكأن اكتشاف المعادن قد انتشر سلمياً: فأكملت المضارة الإنبرليتية ما بدأته مضارة العصر المجرى المديث، والكن في حين أمكن مقارنة العصس الصجري المديث في مصر بمثيله على صحيد العالم، فإن مصد عندما انتقلت إلى العصد الإنبوليتي اكتسبت أمنالتها الشامنة وأخذ التباين ببنها وبين المضارات المحيطة بها يتزايد، وعندما بلغ العصر الإنيوليتي أقصبي سرجات تطوره تداخل واختلط مع المضبارة «التاريخية» بمعنى الكلمة، وهي الحضارة التي أفضى إليها وانتهى عندها،

يقسم علماء المصريات العصد الإنبوليتي إلى عدد من التقسيمات: دختلف باختلاف العلماء، فتضم هذه التقسيمات:

اليداري والعمري والهرزة والمعادي تارة، أو ماقبل الأسرات القديم فالأوسط فالعديث، تسارة أخسري، أو حضارة الإنبولوتي الأولى فالثانية تارة ثالثة، يعقبها أحيانا الزمن السابق على العصور التاريخية Protohistoire, لقد تأكد تتابع البداري فالعمري فجرزة بغضل حفائر الهمامية قرب البداري، فالعصر الإنبوليتي هوفي حقيقة الأمر مكمل للعصر الحجري الحديث وله على غراره مركزان حضاريان، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب، ولكن مايميز العصر الإنبولوتي هو اندماج عنصري الشمال والجنوب بعد مُضي فترة من الزمن، وعلى المدي الطويل انبعثت الحضارة الفرعونية من هذا الاندماج، ومن ثم سوف ندرس العصر الإنبوليتي قبل الاندماج وبعده،

يقتصر مانعرفه عن العصر الإنبواوتي في الفترة السابقة على الاندماج على مواقع الصعيد، وقد تم الكشف عن اقدمها في البداري.

اكواخ الموقع بيضاوية الشكل ومشيدة بمواد خفيفة، ويتكون الأثاث من الحصر ووسائد من جلد وأسرة من خشب، أما جبانة البدارى فتبعد قلياد عن القرية شاتها شأن جبانات العصر المجرى الحديث، والدفنات على شكل حفر بيضاوية مثل الأكواخ، يوسد فيها الموتى في وضع الجدين وتحيط بهم أوان، ربما كانت تحترى القرابين، الجديد في هذه الدفنات هو ظهور تماثيل صفيرة

لنساء عاريات مصنوعة من العاج أو الصلصال، والأهم عو تغشية جدران الحفرة بتعريشة من البوص المجدول لعزل الجثة عن ركام الترية المحيطة، وتظل هيمنة استخدام الظران هي السمة البارزة لصناعة البداري مم اقتصار استخدام النماس على القطع الصغيرة، ثم تشكيلها باسلوب الطرق. واعتمدوا في نسيجهم على الكتان وإن ظلوا يستخدمون الجلود، وأجادوا أشغال الخشب وتقدمت مسناعة الخزف تقدمأ ملحوظأ باللقارنة بمثبلتها في العمس الحجري الحديث، إن أشكالها أقل في عددها من أشكال العمس المجرى المديث في الشمال ولكن تقوقها جمالاً. إنه العصر الذهبي للخزف في مصرر وظهرت تقنية جديدة مع مطلع العمس الإنبوليتي: الطائم المُنجِم الأَرْرِقِ المَائلِ للاحْصَرارِ. ويقيت استعما لاته محدودة، ولكن غلل مستخدماً طوال العصر الإنبوليتي، وأصبح السمة الميزة اللن المسرى، وجدير بالملاحظة أن البداري ليس بها أوان من الحجر الصلب في حين أنها ظهرت في حشارة العمس الإنبوليتي بالهجه البحري، وفي المقابل وجدت مسلابات الشست، وسوف تلحظ تطورها حتى العصر التاريخي، وأخبرا تم الكشف في البداري عن بفنات لميوانات تضم ابن أوي وثيران وكباش وغزلان وكانت مدثرة في حُصِّر أو قماش، وهذا يتور تساؤل حول وجوي شيعائن خاصية بالمعوانات للقدسة منذ هذا الزمن المبكر، وريما كانت هذه الشعائر أساس الديانة المصرية في العمس التاريخين

عاشت المضارة الإنبوليتية كما درسناها في البداري، مم فروق بسيطة، خلال المرحلة التي تعرف اصطلاحاً بعصر ماقبل الأسرات القديم، ولكن قرب نهاية الألف الخامس قبل المياند حلت سلسلة من التغييرات على مركز حضارة الجنوب الذي قرغنا لتونا من براسته، أصبحت الأكواخ مستطيلة وشهدت المقاير تطوراً مماثادً وهو ماييرهن على انها قد صممت كمساكن، وسوف يبقى هذا المقهوم من السمات البارزة للحضارة المصرية، ونمت أشغال النجاس بعد أن كان استخدامه قليلاً ، وقلهرت الأواني الحجرية، وبعد أن كان الخزف غير منخرف بدأت الزخارف في الظهور، فتارة ثقلًا الأواني المجرية، وتارة أخرى تغشى سطوحها بنخارف طبيعية، وظهرت مجمل هذه التغييرات كتتيجة لدمج مراكز الحضيارة في الجنوب وفي الشمال، وبالقعل فإن جميع العناصير الجديدة التي ظهرت على هذا النصوفي صعيد الوادي قد وجدت من قبل ويشكل من الأشكال في مراكز حضارة العصر الحجري الحديث في الشمال ولاسيما في مرمدة بني سلامة والفيوم، ومن المحتمل أن نضيع يدنا على جميع عناصر التجديد في هالة جنينية لو توصلنا إلى معرفة موقع معاصد للبداري، فالمقاطع الكمثرية الشكل الموجودة في مرمدة بني سلامة في العصر الدبيث، تظهر في الجنوب في الألف الشامس، لتدل محل مقمعة على شكل قرص، وبالمثل فإن الأواني الصجرية التي لم تعرفها

البداري قد عرقتها حضارات العصر الحجري الحديث في الشمال. ومن شمّ كان للعلماء أسبابهم عندما اتفقوا على أن التغييرات التي لاحظنا وجودها في مركز الجنوب الحضاري إنما ترجع أصبولها في حقيقة الأمر إلى الشمال. ولكن نود أن تؤكد على نقطة واحدة: إذا كانت حضارتا الشمال والجنوب مختلفتين قبل اندماجهما، فلا يعني ذلك أنهما كانتا غريبتين الواحدة عن الأخرى، ينحمس الجانب الأكبر من مركز الشمال في حواف الدائت الجنوبية وفي الفيوم، وهو إفريقي – شأته شأن مركز الجنوب. لقد تفوق بميزة جغرافية وحيدة، هي إمكانية الإتجار مع الغرب عبر «برزخ» واحة سيوة، ومع الشرق عبر سيناء، وربما جاء النحاس من ناحية الشرق،

وأشدُ البعض بفكرة الغزى لتفسير إندماج الجنوب والشمال، اعتقاداً منهم أنهم كشفوا عن عناصر بشرية أجنبية في مقابر الموجة القبلى اللاحقة على الاندماج، ولا يوجد مايؤكد أن هذه العناصر البشرية «ذات الرأس القصيرة» ليست أيضاً من عناصر البحر المتوسط، وإضافة إلى ذلك، فإذا اعتبرنا هذه العناصر عناصر أجنبية، فإن أعدادها ليست بالضخامة التي تدفع المرء إلى اعتبار أن ماحدث هو غزى أو احتلال، وحتى لو كشف علم الآثار عن ثاثير للشمال على الجنوب كما يجزم البعض — وإن ظلّ الأمر في حاجة إلى دليل — فلا يوجد على كل حال مايدفعنا إلى

أن نؤكد أن ماحدث كان نتيجة تنخل أجنبي، ولا يعنى ذلك بالطبع عدم وجود اتصالات شرقاً وغرباً مع عناصر أسيوية أو ليبية،

وفي عصر ماقبل الأسرات الحديث اكتمل الاندماج بين المراكز المضارية في الشمال والجنوب، وسجلت هذه المضارة تقدماً ملموظاً على المظارة التي كانت قائمة في الوجه القبلي عند بداية العصر الإنبوليتي،

ظهر الطوب اللبن في أعمال التشييد، وكانت مطامير الحبوب من المعلممال المحروق فكانت بالتالي عازلة إلى حدّ كبير، وفي الجبابات، لم تتخذ الحدر أشكالاً مستطيلة، على غرار المساكن وحسب، بل إنها تشبهد إرهامنات عمارة حقيقية، فدورة الدفئة مكونة من بشاء من طين، ويعلوها سقف وأعدت صجرات جانبية كمشازن للمؤن الجنائزية. وفي البداية كان برضع المتوفي في مستدوق من شيزران ثم في الصلمبال المحروق ليدفن في نهاية المطاف في تابوت حقيقي من خشب، بل بيدر أن الجبانات قد أقيمت في البر الغربي من النيل على وجه الخصوص، كما تتجه رأس المتوفي إلى الشمال ليدير وجهه صنوب الشرق، وباختصار فإننا تشهد هنا ظهور الصياغة الأرثى للديانة الجنائزية المسرية ولوعلى الصعيد المادي، وتحسنت الصناعة ويلم معقل الظران الذروة، كما نشهد أخيرا وبالتحديد تصوير الإنسان كما يظهر في رُخَارِفَ الأَوَانِي المُضَارِيةِ ذَاتِ الصَّلَايَةِ المَائِلَةِ إِلَى الصَّفَانِ، وَفِي

التماثيل الصغيرة أو المصنوعة من العاج أو الصلصال، وعلى السطوح المنقوشة لمقابض السكاكين، بل وفي تصوير جداري حقيقي، كما حلُّ الدور على فن التماثيل ليظهر إلى الوجود (تمثَّال رجل وأخر الأسد)، إنه العصير الذهبي للأواني المستوعة من الحجر الصلب، فكانت تقتطع وتصفل بيراعة ومهارة فانقتين، ويلقى تطور الفن يصيص تور على المياة الاجتماعية لأبناء العصر الإنبوليتي. وكثيرا ماتظهر على القطع الأثرية المصورة، ويصغة خاصة على المناذيات المستوعة من الشسن، أشكال مبان أو أشخاص يرقعون مايشيه السواري التي يعلوها حيوان أوشي، وسوف تلتقي في العصور التاريخية بهذه الألوية على هيئة شارات الأقاليم، وتأسيساً على ظهورها، يحق لنا على مأييدو أن تستنتج أن مصرر، قبل حلول نهاية العصر الإنبولوتي، كانت قد عرفت تنظيماً اجتماعياً، وأخيراً فإن انتشار تصوير الصقر ورأس البقرة على سطوح الصلايات ينهض دليلاً على صياغة الديانا المصبرينة منث ذلك النزمن وارتياط عبادة كتحور برأس البقرة وحورس بالصقر، ومن ثم أمثلك سكان وادي النيل مختلف عناصر المضيارة التي ستيدأ الأن في الازدهار بإيقاع متسارعا،

اعتمدنا حتى الآن في عرضنا لحضارة العصر الإنيوليتي على المصادر الأركيولوجية وحدها التي سمحت لنا بإعادة صياغة كبرى انتصارات حضارة وادى النيل لعصر ماقبل التاريخ في خطوطها العريضة: الزراعة وتربية الماشية والنسج وقطع الأحجار

في العصر الحجرى الصديث، والمعادن وتقنيات البناء والتشييد، ثم الفن وتطور الدين في العصر الإنبوايتي، لقد أكدنا منذ البداية في مؤلفنا هذا على قدم الصضارة المصرية واستمراريتها، وبالنظر إلى أنها لم تتوقف أبدأ توقفاً قاطعاً، فقد احتفظت على الدوام بذكرى أقدم العصور، فظهرت المصنفات في العصور التاريخية لتضم التقاليد المتواترة حول ماحدث في مصر قبل ظهور التاريخ المدون، بل وقبل توحيد البلاد، هذه النصوص التي تضمها مايعرف اصطلاحاً بمتون الأهرام، لم تدون في أهرام الجيزة الشامخة، بل على السطوح الداخلية للأهرام الاقل شائاً، التي شادها ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة.

وتشير هذه الوثائق على مايبدر إلى أحداث وقعت في بدأية العصر الإنيوليتي، وللأسف ترتبط هذه الوثائق بأحداث وقعت في مركز الشمال الحضاري الذي لم يصلنا عنه وثبقة أركيولوجية واحدة. ومن ثم يستحين البرهنة على صبحة الوقائع التي نستخلصها من محتون الأهرام بالاعتماد على المصادر الأركيولوجية. وتنبئنا هذه النصوص، إذا ما أخذت على علاتها، بأنه قبل اندماج الشمال والجنوب، كان الوجه القبلي يمثل مملكة الإله دست»، في حين قام تجمع في الوجه البحري يضم أقاليم غرب الدلتا، وأخر معارض له يضم الأقاليم الشرقية من الدلتا، وعلى الأرجح فإن أوزيريس ملك الشمال قد تولى توحيد التجمعين

الشرقي والغربيء ثم شن خليفته حورس هجوماً على مملكة ست الجنوبية فاستولى عليها. وهكذا قام على ماييدو نظام ملكي موحد حكم مجمل تراب مصر، لكنه لم يدم طويلاً على مايظن، وانقسم على جناح السرعة: قملك يحكم الجنوب من مدينة الكاب، وآخر يحكم الوجه البحرى من مدينة بوتو -- تل الفراعين حايلا، ويرى عالم المصريات الألماني «كورت زيته» Sethe (١٨٦٩ – ١٩٣٤)، أن مصس قد أخذت بالتقويم الشمسي خلال مرحلة الوحدة الأولى وهق مايقابل حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، ويرجع أن عاصمة البالد كانت -قرب القاهرة - عند هليويوليس، وإذا صحَّت هذه القرضية - إذ أنها مجرد فرضية ليس إلاً - لأمكن إيجاز تأريخ حضارة ماقبل التاريخ في مصدر على النص التالي: من عام ٥٠٠٠ إلى عام ٣٨٠٠ تقريباً: العصر الحجرى المديث وبداية الإنيوليتي، وكانت مصس منقسمة، على مايبنو، إلى مركزين حضاريين، الأول في الشمال والثاني في الجنوب، حوالي عام ٢٧٠٠؛ ظهور المعادن وقيام الشمال بتوهيد نفسه ثم بغزو الجنوب على مايظن، في بداية الألف الرابع، وحوالي عام ٢٦٠٠: قام نظام مصر، وكان مركزه، على مايبدو، في هليوبوليس، ولكن سرعان ماخيا نجم هذا النظام الملكي لينقسم إلى مملكة في الجنوب وعاصمتها الكاب وكانت منافسة لملكة في الشمال وعاصمتها بوتو، على مايظن.

إن إعادة مدياغة الأحداث على هذا النحو من - ٥٠٠٠ إلى - ٢٠٠٠ المراهين على ضعف البراهين

المعضدة لها، ويميل الكثيرون بالأحرى إلى اعتبار أن وحدة البلاد كانت من صنع الجنوب وأن مملكة هليوبوليس في عصر ماقبل التاريخ ليست سوى رؤية ذهنية.

ه - نهایة عصر ماقبل الأسرات والعصر الثینی (۲۰۰۰ - ۲۷۸۰)

لم نعثر يقيناً عن أثار لوجود «مينا» الذائع الصيت، ومؤسس النظام الملكى الفرعوني، بل ومن الراجح أن ينسحب هذا الإسم على عدد من الملوك، وفي المقابل فبين أيدينا وثائق عن الفترة السابقة مباشرة على توحيد البلاد، فقد عثر في هيراكونپوليس الكوم الأحمر حائياً (راجع ملاحق الكتاب: الخريطة رقم ۱) التي كانت على ماييدو عاصمة ملوك الجنوب لهذه الفترة، على آثار تمثل ملكا يدعي الملك العقرب، وهو يهم بمحاربة المصريين القاطنين في الشمال، ويرجح أن العقرب قد بسط سلطانه حتى شمالي منف، كما يبدى أن خليفته شعرمر كان موحد البلاد المقيقي، ويظهر هذا الملك على سطح مسلاية وهو يحارب أيضا المصريين القاطنين في المسمال، بيد أنه كان يرتدي، منذ الآن، شارات ملك الجنوب والشمال، ومن ثمّ فقد توحدت البلاد في شخصه، ولهذا السبب يتساط البعض عما إذا كان هذا الملك هو مينا،

أما عن الأسرتين الأوليين اللتين دامتا خمسة قرون في الزمان، وأستهلهما الملك «تعرمر» فإننا لا نعرف سوى النذر القليل، بل إن

العاصمة «ثنى» ذاتها - التى كانت على مايبدو قرب أبيدوس - العرابة المدفونة حاليا - فقد تعشر تحديد موقعها على وجه الدقة، ولا ندرى إن كانت مقابر ملوك الأسرة الأولى التي عثر عليها في جبانة أبيدوس ليست سوى مجرد مقابر تذكارية.

تضم الأسرة الأولى ثمانية أو سيعة ملوك (حسيما اعتبرنا «تعرمن» مؤسس الأسرة أومجرد سابق عليها ، وهؤلاء المُلوك هم: تعرمر وهما مجر وواجي (أو جت كاعرف في الماضي) و دن (ويعرف أحياناً بإسم واديمن) وعج إيب وسمرخت وقا، وعلى كل حال لا تتطابق هذه الأسماء كما تعرفها من الآثار وأسماء القوائم الملكية التي تم تصنيفها في رقت لاحق ولا مع قائمة مانتون، ولا ينبغى أن نشغل بالنا هنا بأمر هذا التطابق، كانت الأسرة الأولى مرحلة تنمية متسارعة، ومن المؤسف له حقاً أننا نفتقر إلى الوثائق، وهو سايسول دون تتبع هذه التنسية وير استها , إنه همس تأسيس مصير كما ستبنو خلال النولة القديمة، وقد جنح مركن المملكة إلى الاستقرار عند الطرة الجنوبي للنلتاء بين الشمال والجنوب تماماً. ويبنو أن تأسيس مدينة مثف التي أصبحت عاصمة الدرلة القديمة -- يرجع إلى عهد عما . كما شهدت هذه المرحلة توسعاً حضرياً يشهد على أن تنعية البلاد قد بلغت شباراً عظيماً. ومنذ ذلك الرقت المبكر، شرعت الأمة الوليدة تصطدم بأعدائها «التاريخيين»، نعنى النوبيين في الجنوب،

فشن عليهم جر في أعقاب عما معارك مظفرة حيث توغل في عمق أراضي النوبة. وسجل انتصاره في نقش محفور فوق قمة جبل الشيخ سليمان (على بعد ١٥ كم جنوب وادى حلفا) عند مدخل الجندل الثاني. وأخيراً فإن الدفنات النوبية المعروفة «بالمجموعة أ» --- المعامسة للأسرات المصرية الأولى -- تقف شاهداً على تناثين مصرى أكيد، إن لم تكن بالفعل على تبعية كولونيالية جزئية. كما أن الفراعنة الثينيين قد حققوا نجاحاً مماثلاً ، على ماييس عند كبح جماح الليبيين غرباً وكذلك الأسيويين شرقاً، بعد أن اصطدم بهم «سمرخت» على مايظن، في غمار حملته على سيناء، وأخيراً جرد، دواجي، الملك الثعبان - حملة إلى الصحراء الشرقية صوب البحر الأحمر عند مستوى مدينة إدفق. (راجع الخريطة رقم١). وإذ وأصل ملوك مصر أولى هذه المعارك الخارجية، فقد استمروا يباشرون أعمال التهدئة في الداخل، إذ لايبدو أن أهل الشمال قد تقبلوا على الدوام وعن طيب خاصر هيمنة ملوك انحدروا أصلاً من الجنوب على مايظن،

تضم الأسرة الثانية سبعة ملوك طبقاً لما عثر عليه من آثار بتسعة أو عشرة حسب قوائم الملوك، وسينصب اهتمامنا على الملوك الذين عثر على آثارهم وهم: دحوتب سخموى، و «نب رع» و «نبي تتر» (المعروف أيضنا تحت إسم أتتريمو») و دوئي» و«ستدی» و «پر إب سن» وهم سخم» و «خم

سخموى»، ولا يتميز هنؤلاء الملوك عمن سيقوهم في شيئ، فاستمرت الحروب شد النوبيين، وكذلك عمليات إخضاع الشمال. ومن ثم يمكن أن نتطلم إلى تطور مصد التاريخي في ظل الأسرتين الأوليين كسياق واحد، ويتميز هذا التطور بتقدم الكتابة وتنظيم المؤسسة الملكية، والأمران مرتبطان دون شك، فما كان للكتابة أن تتمع وتتقدم إلا مدفوعة بزيادة سلطات النظام الملكيء والعكس بالعكس، وبلغت الملكية قدراً من القوة يسرُّ عليها إرسال الحملات إلى خارج مصر، فوصلت الجيوش المصرية حتى سيناء، بحثاً عن الأحجار الكريمة وتوغلت في أعماق النوية وفي الصحراء الشرقية. وشرع تشكيل النظام الملكي يكتمل شيئاً فشبيئاً، وكم كناً نود أن تعرف هل كان النظام ملكية مطلقة منذ ذلك العصر، مثلما كان الحال في ظل الدولة القديمة، وهل ظلت القبائل أو القرى تتمتم بقدر من الحياة المستقلة؟ لا نعرف شبيئا عن ذلك. ولكن تبرن حقيقة سادت وهيمنت كقسمة مميزة للنظام الملكي في مصر حتى الغزق اليوناني: نعني بذلك السمة الدينية التي طبعت هذا النظام، إن فرعون إله على الأرض، ومن ثم اكتسبت حفادت التتويج والأعياد الدينية التي لا حدُّ لها في ذلك العصر دلالة مزدوجة، فهي إدارية ودينية على حدّ سواء، فلا انفصال بين ماهى مقدس وماهى مدنى، فقد يكون الموظف كأهنأ شائه في ذلك شأن الملك، ويبدى أن تعقد سلك الوظائف ونظمها قد أهذ ينمو ويتسع في ذلك العصس.

وإذ تلامظ أنّ الهيكل الوظيفي قد أخذ بالتدرج الهرمي فإننا الا ندري إن كان قد عرف التخصيصات الدقيقة أيضاً. وتأبعت البلاد تنظيم اقتصادهاء وشاهدنا الملك يشرف بنفسه مرتان على شق القنوات. إن المشرف على مبيانة القنوات كان واحداً من أبرن الموظفين وأحد ألقابه هماكم الإقليمه الذي تقع على عاتقه شنون الإدارة المعلية بأسرها، ومن شم تمثل الأسرنان الأوليان عمس بلورة المضارة المسرية وقد شهدت العصور التي سيقتها تراكم المنامس المادية الضرورية لهذه الحضارة: كانتشار الفلاحة في أرض مصر ومساغة الديانة واللغة والكتابة والتوصل إلى تقنيات المعادن والنشار والنسيج إلخ.. لقد حوات الأسرتان الأوليان هذه الحضارة من مجرد إمكانية إلى مملكة موحدة سياسياً، عندئذ تبرز المسألة «السياسية» التي كانت غائبة عنًا في عصر ماقيل التاريخ، وإذا نشعر بالأسف الشديد لافتقارنا إلى مايوضيح سياق تطور تنظيم البالاد، لقد أتاحت لنا الأركيولوجيا (علم الآثار) ودراسة الخرافات الدينية أن نتصور من جديد عملية توحد البلاد في خطوطها العريضية وكيف انصبهرت جماعتا الجنوب والشمال بعد تناحر مرير، ولكن لا الوثائق الأركيولوجية ولا الأساطير، تلقي المُنوء على ولادة «الدولة» الفرعونية التي تظهر في العصر التالي مكتملة الأركان، وتتعرف مع بداية الأسرة الأولى على وجود ملك واحد، وأن مصر تنقسم إلى أقاليم، عُيِّنَ على رأس كل منهما موظفون ملكيون، واكن مانشاهده هو النتيجة، ولا ندري كيف كان الطريق إليها، وتنعقد الأمال الضخمة على الحفائر الجارية في الموتت الراهن في سقارة وحلوان، وتضم عدداً كبيراً من مقابر الأسرات الأولى، ونخص بالذكر إعادة إستكشاف مواقع نقادة وهيراكونيوليس (الكوم الأحمر حاليا) في جنوب البلاد، وربما ألقت هذه الحقائر الجديدة ضومًا جديداً على تنظيم المؤسسة الملكية، وربما دفعتنا أيضاً كما تشير بعض الدلائل، إلى الرجوع ليداية تنظيم البلاد إلى زمن أكثر إيغالاً في الماضي، في قلب الأزمنة الغابرة التي عرضنا لها لتونا بإيجان.

الغصل الثانان مصر الكلاسيكية ١ - الدولسة القديمسة ٢٧٨٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م على وجه التقريب

عندما كان المصريون في فترات الانحطاط يتخبلون عصراً شعبياً، كانت الدولة القديمة هي قبلة أفكارهم، فيسعى فنانوها وكتبتها سعياً حثيثاً، إلى تقليد لغة هذا العصر وفنونه، ولا ندرى ماهي الوثائق التي كان يعتمد عليها المصريون لمعرفة أجدادهم الأولين، إلا أننا بالتأكيد أقل حظاً منهم، إذ مازالت معرفتنا بتاريخ الدولة القديمة معرفة سيئة. صحصح أن هذا العصر خلف وراءه أثاراً عديدة، وعوضاً عما نعانيه من قصور في التاريخ السياسي والعسكرى والإدارى، فقد بلغت معرفتنا بالحضارة المادية قدراً معقولاً. وسيقتصر عرضنا هنا على الإطار التأريخي للدولة القديمة التي تعتبر نظر الكثيرين من أزهى عصور المضارة المصرية.

كما أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين العصر الإنيوليتي والأسرتين الأوليين، كذلك لا وجود لفاصل بينهما وبين بداية الدولة القديمة، إن «جسر» ثاني ملوك الأسرة الثالثة – التي يبدأ بها هذا المعسر – هو على ما يحتمل إبن «خع سخموي»، أخر ملوك

الأسرة الثانية، بيد أن ماشهدته المضارة عندئذ من تطوير ير والسيما في فنون العمارة - يحملنا مع ذلك على أن نبدأ اسرة جديدة، والحدث الأهم الذي وقم في ظلّ حكم «جسر» هو انتقال مركن البلاد السياسي - وأو تقارياً - من أبيدوس إلى منف، الأمر الذي بيرر، على كل حال، تصنيف الدرلة القديمة كمرحلة منفصلة، فمرفت أحياناً لهذا السيب بالنولة المنفية أو بالعصور المنفية، فيحد أن أمر «جسر» بأن تشيد له مقبرة في «بيت خلافه على مقربة من أبيدوس، أمر بأن يشيد له هرم مدرج في سقارة على مقرية من منف، وخالال حكم «جسر» أيضا على ماييدو -- قام فرعون بتعيين وزير أول ليعاونه في تصريف الشئون الإدارية، بعد أن توسعت الإدارة الملكية أو ازدادت تعقيداً. إن منصب الوزير الأول الذي شغله «إيمحوتي» - قد جرب العادة أن يطلق عليه في ثفات الغرب إسم «وزير» vizir قياساً على ماهي متبع في الدول الشرقية التربية العهد، ومع أنه لم يحمل فعادً لقب «وزير» («تشاتي»)، إلا أنه باشر اختمنامنه، ونسجت في وقت لاحق أسطورة حول شخصية «إيمحوتپ»، فارتقى إلى مصاف الآلهة باعتباره ابن الإله يتاح في منف، وإليه يرجع الفضل في تشييد المجموعة المعمارية الرائعة لهرم سقارة المدرج وملحقاته، ونستنتج من العديد من الدلائل أن «جسر» قد شنِّ غارات عسكرية على النوبة ليواصل ما انجزته الأسرة الأولى في هذا المضمار،

وهكذا تهج سياسة قللت خطأ ثابتاً طوال الدولة القديمة، حيث ركز المسريون في ذلك العهد جلّ اهتمامهم على جيرائهم في الجنوب أكثر من اهتمامهم بجيرائهم في الشمال الشرقي، وحسبما ورد في نص، يرجع في الحقيقة إلى العمر المتأخر، فإن «هسر»، كان أول من توغّل في النوبة، فيما وراء الجندل الأول، ولكن كما رأينا فإن الملك «هر» كان قد وصل من قبل إلى الجندل الثاني، ولا ينبغي على ما يفترض أن نفهم النص على أنه إشارة إلى التغلغل في أراضى النوبة، بل إلى الاستيادء عليها وضمها إلى مصر، وإذ كانت سيناء لا غنى عنها الإقتصاد الصناعي والديني في مصر بما تضمه من محاجر الأحجار الكريمة وربما النحاس، فقد خللت هدفاً للإغارات وتشهد اوحة محفورة في الجبل على ومول قوات «هسر» إليها.

إن نهاية الأسرة الثالثة معروفة معرفة سيئة جداً إذ لا تكاد نعرف شيئاً عن ملوك الأسرة الأخرين: دسانحت - تهكاء وحضع باء و «تعركا» وأخيرا «صو» أو دحوني» (أي الفسراب)، صاحب الهرم القائم في ميدوم، وعلمنا من الاكتشاف الموقق في سقارة عام ١٩٥٢ لهرم لم يكتمل أن اسم خليفة «جسر» كان يدعى «سخم خت»، بعد أن فلت معرفتنا به قاصرة على نقش في سينا».

الاسرة الرابعة:

كان من المقترض أن تكون الأسرة الرابعة التي تبدأ بحكم

«سنفرو» خليفة «حوبي»، من أفضل مانعرفة من أسرات مصر الفرعونية، بالنظر إلى أنها أسرة بناة الأهرام الكبرى، ولكن المقيقة خلاف ذلك، فأفضل ماوصلنا من معلومات يخص أيضاً «سنفرو» مؤسس الأسرة، وإن كان من الأمسوب القول أن معلوماتنا عنه هي الأقل سوءا، وبالفعل تخبرنا أجزاء الموليات المدونة على المجر الذي يعرف اصطلاحاً بحجر بالرمو، بأن عهده قد شهد حملة إلى النوبة وأخرى إلى ليبيا وأن جنوده قد وصلوا أيضاً إلى سيناء كما يشهد أحد المحريشات على ذلك، وأخيرا كان «سنفرو» بناء عظيماً كما تشير إليه ماشيد أو عدل من أهرام، بناء على طلبه، فإحداها في ميدوم والآخران في دهشور، والتنفيذ على طلبه، فإحداها في ميدوم والآخران عي دهشور، والتنفيذ مشاريعة الإنشائية فقد أقام على ماييدي علاقات مع سوريا التي مشاريعة الإنشائية فقد أقام على ماييدي علاقات مع سوريا التي

وان يبخل المره بشىء مقابل أن يحصل على معلومات عن خلفاء سنفرى الثلاثة: «خوفو» ويخعفرع» و «منكاورع»؛ إن مانعرفة عن الملوك الثلاثة الذين شابوا الأهرام الكبرى - أهم عمائر مصر - هو في الحقيقة أقل بكثير مما تعرفه عن سلقهم، تقد رأى الإغريق والكثير من المحدثين الذي نسجوا على منوالهم أن هؤلاء الفراعنة كانوا طغاة سحقوا الشعب المصرى تحت وطأة أعمال السخرة، لقد برهن جورج بوزنر G. Posener أن هذا التقليد المتواتر إنما يرجع إلى الأدب المعادى النظام الملكي الذي شاع في

مصير خلال عصير الانتقال الأول، وأكن الذي حدث في وأقيم الأمن أن إقامة الشعائر الجنائزية التي تخص هؤلاء لللوك لم تتوقف أبدأ واستمر حتى الغزو المقدوني، الأمر الذي لا يتفق مع ماشاع بشائهم كملوك مكروهين، وياستثناء الحمانت إلى سيناء في عهد خوفي فإننا لا تعلم شيئاً عن النشاط العسكري للوك هذه الأسرة. وباختصار، فإن الأمر أشيه مايكون كما لوكان كل مانعرفه عن لويس الرابع عشر ملك فرنسا -- قد وصلنا من خلال قصر قرساي Versailles ، ومازالت أثار هؤلاء اللوك تقف في مكانها وفي كمالها، تشبهد دون جدال على حضارة تفوقت تقنيا وإدارياً على حدُّ سواء، ولكن كل ماتعرفه يقف عند هذا الحدُّ، بل إن ترتيب قراعنة هذه الأسرة غير مؤكد، فمازالنا نجهل على وجه التحديد ترتيب الملك «جدفرع»، كان ثاني أبشاء الملك «ضوفو» واغتصب المكم، على ماييس، بعد أن أمر يقتل أخيه. وبعد أن اغتيل هو شخصياً حل دخعفر م، مكانه، على مايفان، أما أواخر ملوك الأسرة وهم «بيكريس» و «سبركيس» و «ثمقتيس»، طبقاً تراوية مانتون، وفيما عدا «سبركيس» (أو «شيسسكاف» كما ورد على الأثار) فإننا لا تعلم إن كانوا قد وجدوا بالفعل،

الأسرة القامسة : (٢٤٢٣ -- ٢٤٢٣)

تحدثنا حكاية مصرية من الدراة الرسطى عن تفاصيل منشأ الأسرة الخامسة. فقد حدث على مايعتقد أن زيجة أحد كهنة الإله

رع حملت بالملوك الثلاثة الأوائل لهذه الأسرة وأن الإله رع ذاته كان والدهم، ومن المؤكد أن عبادة إله الشمس رع قد بلغت في هذا الزمن شأوأ عظيماً، ريما لأن هليويوليس كانت ببساطة الموطن الأصلى لهذه الأسرة -- حيث عبادة الإله رع، أوريما أيضاً يسبب النور الذي لعبه كهنة هذه المدينة عند تولى هذه الأسرة مقاليد الحكم؛ ومهما كان الأمر، قمئذ ذلك العصر والقراعنة يحملون بصنفة ذائمة لقب «ابن رع»، وبداية فإن سطوة الدين على الحياة في ذلك العصير، تجد ترجمتها في أسماء المثوك، فاسم رح يظهر فيها في أغلب الأحيان، وهنؤلاء الملوك هم: «أوسركاف» ودسامورجه ودنفرایرکارج، ودشیسکارج، و دنفر إن رع» و دنی أوسر رع» و «متكاوهور» ودچنگارع --إسيسمي» و «أوقاس»، كما حددت الديانة الشمسية عمارة المعابد التي شيدت في ذلك الحين، ويشين حجن بالرمو إلى تشبيب العديد من المعابد، وأخيراً، يرجع تصنيف متون الأهرام إلى هذا العمس، (بل ويتسامل البعض إن كان تاليقها لا يعود إلى هذه الفترة)

وعلى صعيد التاريخ الضارجي، يبدو أن الأسرة الخامسة قد وأت وجهها شطر آسيا، إما لوقوعها ضحية هجوم أر ارغبتها في التوسيع في ذلك الاتجاء، وخرج «ساحورج» و «تي أوسر رع» ومنكاوحور» و جدكارج» على رأس الحملات العسكرية إلى سيناء وأيضاً إلى آسيا وإيبيا.

الأسرة السادسة (٢٤٢٣ – ٢٢٦٣ تقريباً) :--

جاء الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة، ذات الأصول المنفية، دون صدام واضبح، وتكاد لا تعرف شيئا عن أول ماركها «سحتب تاوي تيتي» وأيضاً عن خلفه وأوسركارجه الذي كان حكمة قصيراً جداً، ونصبح أوفر حظاً مع «يييي» الأول، فنعلم أنه شيّد العديد من المعابد وتعرف بعض تفاصيل حياة الملك بغضل مارصلنا من السير الذاتية لكبار الموتلفين. تزرج «يبيى» الأول على التوالي من ابنتي أحد كبار موظفي أبيدوس ورَّرق منهما بولدين تعاقبا على عرش مصر، لقد وصلنا العديد من الوثائق عن نشاط «يبييي» ولاسيما المراسيم الخاصة بإقامة المؤسسات الخيرية، وهذه المراسيم عظيمة الفائدة لدراسة القانون المصرى في أقدم العصور، وشائه شان أسالفه، ظل «يبييي» يراقب النوبة في حذر وأعد العدة للقيام بالعديد من الحملات ضيد الأسويسين، وكان «أوني» على رأس هذه الصملات وخاص خمس معارك على الأقل، ضد البدق في اسبياء وهو مايشين على ماييدي إلى أن البائد المعادية لم تكن تخضع للاحتلال تحت أي ظرف من الظروف بل كانت الجيوش المصرية تكتفي بمجرد شن غارات كبيرة عليها.

أما خليفة «بيبي» الأول المباشر فهو ابنه «مرترع» الذي يعتقد أنه توفى في مقتبل العمر بالنظر إلى أن مدة حكمه لم تتجاوز

الخمس أو السن سنوات، وواصل «مرنرع» على مايبدو سياسة فرض تبعية النوبة لمصر، وهي السياسة التي وقع على عاتق خلفه أن يستكملها، فأرسل إلى النوبة العليا شخصاً يدعى «حرخوف» الذي توغل إلى أعماق إفريقيا.

ويتيجة وفاة «مردرع» المبكرة، اعتلى العرش «پيپي» الثانى وهو أخوه نصف الشقيق، ولم يتجاوز السادسة من عمره، فكانت سنوات حكمه أطول ماعرفته مصر: إذ دامت أربعا وتسعين سنة، وفي عهده واصل «حرخوف»، مابدأه في عهد «مردرع»، فعمل على استتباب الأمن في ربوع النوبة، وخرجت الحمادت التجارية إلى بيبلوس وإلى بلاد بونت» أي على امتداد الشاطىء الإفريقي للبحر الأحمر - جهة إريتريا الحالية، وأخيراً تشير أعمال التنقيب المديثة في بلدة «بلاط» إلى أن واحات الصحراء الفربية، والواحة الداخلة على وجه الخصوص، كانت ملتقى الطرق بين والواحة الداخلة على وجه الخصوص، كانت ملتقى الطرق بين مصر من ناحية، وبين النوبة وليبيا من ناحية أخرى، وهكذا لعبت موراً بارزاً في علاقات مصر الخارجية،

وقى غلل حكم بيبى، الثانى بدأ المسمحلال الدولة القديمة، إما لأن مدة حكمه قد طالت أكثر من اللازم، أو لأن الملك، وقد تقدمت به السن، لم تتوقر له العزيمة الملوبة للإبقاء على وحده البلاد التى كانت ترتكن في واقع الأمر على شخصه وحده، ومع ذلك، وطبقاً لما رواء مانتون، تربع أيضاً على عرش مصر خلفاً لد دبيى، الثانى --

ملك وملكة، هما «مرترع» الثاني و «نيتوكريس» (نيث إقرث)، دون أن نعلم شيئاً محدداً عن حكمهما، وهكذا انتهت الدولة القديمة على هذا النحو من الغموض، إلا أنها كانت عصراً عرفت فيه مصر قدراً كبيراً من الرخاء الدلخلي، وهو بكل تأكيد العصر الذي بلغت قيد السلطة القرعونية أوجها، وكان الملك أنذاك إلهاً على الأرض بكل مالهذه العبارة من قوة، فيخشاه الناس ولكنهم يطيعونه، وفي خلل مافرضه من انضباط صارم عرفت مصر على مايبدو ازدهاراً اقتصاديا ان تستعيده فيما بعد إلا بصعوية وعلى فترات متفاوته، ولم تصلنا المعلومات الكافية عن مدى الإشعاع الخارجي للدولة القديمة، ولكن واقع وجود معبد مصرى في بيبلوس في ذلك العصر لبرهان على أن هذا الإشعاع لم يتوقف عند حدً إعادة فتح النوبة، الأمر الذي ظل على كل حال المائرة الكبرى لهذا العصر.

٧ - عصب الانتقال الأول

قد تكون المرحلة الفاصلة بين الطور الأول من تاريخ مصر الكلاسيكية وطوره الثاني - مرحلة نتحرق شوقاً إلى معرفتها، إذ يبدر مؤكداً استناداً إلى المصادر التي تحت أيدينا، أنه قد ظهر إلى الوجود منذ عهد «بيبي» الثاني، مايشبه الاختمار الاجتماعي، وسرعان ما استعصت أوضاع الثورة الاجتماعية من جراء تفتت السلطة المركزية، وهكذا ولفترة تزيد على قرن من الزمن تقاذفت

مصر القلاقل الاجتماعية وقوضى الأقاليم التي زاد من حدثها، على مايعتقد، التسلل الخارجى، وتعرف هذه الفترة بمصر الانتقال الأول، إنها فترة يسودها الغموض، ويبدو أنها بدأت في واقع الأمر منذ عهد «يبيى» الثاني، وتتسم باضمحلال سلطة منف المركزية والثورة الاجتماعية في أن واحد، وإذا كان في الإمكان أن نستشف اضمحال السلطة المركزية من خلال الوثائق الماصرة فالثورة ذاتها تظل غير معروفة إلا من خلال نصوص أدبية تم وضعها بعد وقوع الأحداث.

رأينا أن سبب اضمحلال السلطة الملكية يرجع في واقع الأمر إلى أن منصب حاكم الإقليم قد أخذ يتحول إلى منصب وراثى، ويرد المعترضون بأن ضعف الملوك قد سمح بأن يُورَك «حكام الاقاليم» سلطاتهم إلى أبنائهم، وربما كان ينبغى البحث عن السبب الدفين وراء اضمحال النظام الملكي في نقدان الملك هيبت، إن لم يكن في ضياع الطابع المقدس لشخصه، يتحدث الناس عادة عن قيام الإقطاع في مصر في ذلك الزمن، ولكن ينبغي أن نبتعد عن أي تلاعب بالألفاظ، فمصد لم تعرف قط النظام الإقطاعي، بما يحمله هذا اللفظ من معني في تاريخ العصر السيطة، فلم يتعد الأمر وجود حالات من اغتصاب السلطة على الستوى المحلي، وهو مايختلف كل الاختلاف، وقد يعترف الملك المستوى المحلي، وهو مايختلف كل الاختلاف، وقد يعترف الملك بالأمر الواقع، إلى هذا الحدّ أو ذاك، لعجزه عن القضاء عليه، ولم

يصل الرضيع أبدا إلى حد إقامة نظام شبيه بذلك الذي قام على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

وريما جاست إغارات اليس التي عجز الملك عن مسمّا لتعجّل من اضمحلال السلطة الملكية ﴿ فَأَصْدَى هَذَا الاَضْمَحَلَالُ عَلَى مابيني في أصل القلاقل الاحتماعية التي لا تعرفها إلا من خلال بعش التصوص اللثيرة جداً لاهتمامناء فضير مانفعل هو الاستشهاد بها: «الفقراء صباروا يملكون الخيرات، من كان عاجزاً. عن أن يومس بأن يصنع له تعلان، يملك الآن الكنوز.. والأثرياء في أنين، في حين يرتدي الفقراء الفرح، ويقول أهل المُدن: «قلنمسك بالأثرياء الذين بين ظهرانينا ..» القصور وصنوف الأساملين أشرمت فيها النان، والأقاليم شرّيت، والذهب والفضة والأهمان التنفيسة تزين جيد العبيد، في حين تقول السيدات التبياني: «وأهأ؛ لو كان عندنا على الأقل ما تأكله»، وهنَّ مزاني يسيب الأسمال التي تكسوهنُّ». وتقوض الاقتصاد (وليس توزيع الثروات فحسب): «فهناك نقص في المصنوعات.. والبان في خراب تام، ولم يبق شيئ ولا حتى سحم الأظافر لمن كان يمتلكه في الماضي .. يقيناً لقد زال كل ماهو طيب». وكما الاحظنا فإن هذه التصنوص واضبعة كل الوضوح، لقد قامت في مصدر ثورة حقيقية، فكم كنَّا نود لو كان في مقدورنا أن ندرسها عن كثب، واكن لا نجد بين أيدينا للأسف وثيقة تاريخية وأحدة تساعدنا على التصدى لهذه الدراسة، اللهم إلا النصوص التي اخترنا منها بعض المقتطفات والتي ترجع إلى عصر لاحق يبعد كثيراً عن زمن هذه الأحداث، وهذه النصوص هي من وضع كتبة يمكن أن نطلق عليهم وصف «المحافظين» وكانوا مكلفين خصيصاً من جانب ملوك الأسرة الثانية عشرة بتمجيد عودة النظام والاستقرار، فكان من مصلحتهم المبالغة في وصف انحلال المجتمع إبرازاً لقيام ملوك الدولة الوسطي بنشر الأمن والاستقرار، بل إننا لا نعرف إن كانت الثورة قد شملت البلد ياسرها أو ربما تمركزت في منطقة منف،

ولا نعرف بشكل أفضل غيرها من الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة المعتدة، أما القوائم الملكية المصرية ومانتون فيذكرون أسماء الملوك موزعين على أسرتين (السابعة والثامنة)، بيد أننا لا نعلم شيئا عن هؤلاء الأشخاص، فالأسرة السابعة حسب مانتوز (وتضعم سبعين ملكاً - إجمالي مدة حكمهم سبعين يوماً) لم توج على الأرجح، ويقتصر مانعرفه عن الأسرة الثامنة، على القوائا الملكية لأن مانتون قد اكتفى بتحديد عدد ملوكها الإجمالي وهو شمانية عشر ملكاً، دون أن يذكر أسماءهم،

وقيما مضى، كان من المتفق عليه أن سبعة من حكام أقاليم جنوب الصمعيد قد التفوا - مع بداية الأسرة الثامنة - حول حاكم إقليم «كويتوس» - قفط حاليا - ليشكلوا مملكة مستقلة، وساد الاعتقاد أن هذه الملكة المحلية لم تعسّ لأكثر من أربعين عاماً، ولكن هايز W.C. Hayes برهن في عام ١٩٤٦ على أن الأسرة المعرونة بالقفطية لم يكن لها أي وجود في الماضي، وانشهت الأسرة الثامنة المنفية (نسبة إلى مدينة منف) حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م نهاية غامضة. كانت مصر قد انقسمت آنذاك إلى ثلاثة أقسام: فقى الشمال، ظهر الغزاة الأسيويون حيث كان لهم بِالصِّرورةِ اللهِ العليا، أما في وسط الباند، فقد ظل قادُّما في منف ماتبقي من النظام الملكي المركزي المتيق، وفي مصر الوسطي، تلقُّب «خيتي» حاكم هير الكيويوليس – إهناسيا حالياً – بلقب ملك مصير العليبا والسغليء وسرعان ما أصبح يتحكم في منطقة منف وفي الفيوم أيضاً. أما في جنوب البائد، فقد نحيّ حكام طيبة ملوك منف، وجمعواء على ماييس، من حولهم الأقاليم الجنوبية، واستمرت هذه الأوضاع بعض الوقت على مايظن، وإذا استبعدنا الدلتاء تبدو مصر وكأنها قد عادت أدراجها إلى عصور ماقبل التاريخ، لتنقسم إلى مجموعة من الأقاليم، بعضها في مصر الوسطى شمالاً، والأشرى في الجنوب، وزعماء مصر الوسطى (من الأسرتين الإهناسيتين) هم دهيتي، الأول والثائي والثالث ومرى كارح (إلى جانب العديد من الملوك الذين لا تعرف أسماءهم)، أما زعماء الجنوب في طبية فهم الأناتفة والمناتحة،

وإذ شرعت كل من المجموعتين توطد مركزها تدريجياً داخل معتلكاتها، لم يلبث الصراع أن تفجر بينهما، ولفترة طويلة اكتنف

الغموض الوضع، وتناوب الطرفان الانتصارات والهزائم. وعلى كل حال فإننا لا نعرف هذه المرحلة معرفة طيية إلى أن حدث حوالى عام ٢٠٦٠ أن حلّت اللحظة التي توحدت فيها مصر من جديد بزعامة أحد المناتحة، سليل حكام طيبة وزعماء أقاليم الجنوب، واعتباراً ومن هذا التاريخ تبدأ الدولة الوسطى.

٣ -- النولة الوسطى ٢٥٠٥ -- ١٧٨٥ ق . م

غداة عصر القلاقل الطويل الذي انتهى عام ٢٠٠٠ على وجه التقريب، استعادت السلطة وحدتها في مصر يفضل حكام إقليم طيبة، وإذ بدأت هذه الوحدة على يد حكام هذا الإقليم ومنذ عصر ملوك هيراكليوپوليس (إهناسيا حاليا) بالتحديد، فإن استعادتها لم يكن من صنع فرعون واحد، إنما كانت إنجازاً حققته أسرة ملكية بكتملها، هي الأسرة الحادية عشرة التي كانت، في أيامها الأولى، معاميرة للأسرة العاشرة الإهناسية التي خلفت الأسرة التاسعة بالإهناسية أيضاً، التي أسسها خيتي الأول (راجع ماتقدم). وبينما ركز زعماء هيراكليوپوليس جلّ اهتمامهم على الدلتا، بل وتوصلوا إلى طرد البدر منها، فقد تحول زعماء طيبة صبوب النوبة، وبفضل هاتين العمليتن الموازيتين، في الجنوب وفي الشمال، اختمرت وحدة مصر. وسوف تأخذ الأسرة الحادية عشرة على عائقها مهمة اتمام مصر. وسوف تأخذ الأسرة الحادية عشرة على عائقها مهمة اتمام الوحدة وتوهيد الجنوب مع الشمال،

الأسرة السائية عشر - (٢١٦٠ - ٢٠٠٠ ق،م تقريبا) سبق أن عرضنا لتاريخ حكام طيبة الأوائل الذين حاربو ملوك هيراكليوپوليس، وكان «المناتحة» أول من اتخذوا لقب ملك مصر العليا والسفلى، وهتى بضع سنوات ساد الاعتقاد بأن اسم «منتوحوتب» قد حمله خمسة فراعنة، وعلى أثر عمل انتقادى طويل للمصادر، أصبح من الأمور المتفق عليها بشكل عام أن عدد «المناتحة» ثلاثة، وأن «منتوحوتب» الأول (٥٢٠٧ – ٢٠١٥) هو الذى نجح في نشر الأمن والسلام في مصر، أما عن أخر ملكى هذه الأسرة وهما منتوحوتب الثاني والثالث، فلا نعرف عنهما شيئا وذكر، اللهم إلا أن مدة حكمهما كانت قصيرة،

في مقدمة إنجازات الأسرة الحادية عشرة توحيد البلاد، بيد أن نشاطها لم يقف عند هذا الحد، فبعد أن وضع «المناتحة» حداً للسيادة الإقليمية التي نمت خلال عصر الانتقال الأول، واستعادوا السلطة المركزية، هادوا إلى انتهاج سياسة التوسع في النوبة، حيث وصلوا إلى الجندل الثاني على مايبدو، كما جهزوا طريق وادى الحمامات الذي كان يربط مصر بالبحر الأحمر ويستخدم كنقطة انطلاق إلى سيناء وبلاد بوئت (راجع ماتقدم)، ويخترق هذا الطريق الصحراء الشرقية، وجرد ملوك الأسرة الحادية عشرة الحمادت العسكرية ضد البدو المنتشرين في طول البلاد وعرضها وأقاموا فيها نقاط ماء.

الأسرة الثانية عشرة - (٢٠٠٠ - ٥٧٧٥)

لا تعلم شيئًا عن كيفية الانتقال من الأسرة المادية عشرة إلى

الأسرة الثانية عشرة، ولكن بالنظر إلى وجود وزير يحمل اسم «أمنمحات» في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الأواخر، وهو ذات الإسم الذي سوف يحمله فيما بعد مؤسس الأسرة الجديدة فلربما يشير ذلك إلى اغتصاب السلطة، وتعتبر الأسرة الثانية عشرة التي أمسكت بزمام السلطة، حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، من أعظم الأسرات في التاريخ المسرى وأمجدها، فقي ظل إدارتها، لم تحافظ مصر على الاستقرار الداخلي فحسب، بل لقد وصل إشعاعها إلى خارج البلاد كما لم يحدث، دون شك، من قبل، بما في ذلك زمن فراعنة الأسرة الرابعة العظماء، ورغم أن الأسرة تتحدر أصلاً من طيبة، فقد عادت لتستقر من جديد في منطقة منف، فمن هنا كان يسهل عليها أن تدير دفة الأمور في البلاد باسرها.

ركن امتمعات الأول (٢٠٠٠ - ١٩٧٠) جلّ اهتمامه على مايبدو على الشئون الإدارية، وريما اعتمد عند تسلمه السلطة على فئة الأشراف بالأقاليم، وهو مايفسر تجدد بعض نزماتها الاستقلالية، ومن المحتمل أنه قد اهتم مئذ ذلك الوقت بحماية حدود مصر الشرقية، ولكن خلفاء هم بالتحديد الذين اضطلعوا بهذه المهمة، وفي النوية توغل امنمحات الأول حتى ومعل إلى كورسكر، وكان وانتهى حكمه فجأة على أثر مؤامرة من تدبير القصر الملكي، وكان أبنه أنذاك في ليبيا على رأس الجيش، ولكنه استطاع أن يعود في الوقت المناسب لتسلم السلطة.

ستوسرت الأول (۱۹۷۰ - ۱۹۲۱).

واصل سنوسرت الأولى سياسة أبيه في النوية، فتقدم حتى الجندل الثالث ووضع يده على مناجم الذهب في هذه المنطقة، كأن الطريق الموصل إلى هذه المناجم يبدأ من وادى حلفا، ولتأمين سائمة الحمائت، أمر سنوسرت بأن تشيد فيه قلعة عند بوهن، ومنعاً لتكرار الأحداث التي أدمت نهاية حكم أبيه قام سنوسرت سؤهى على قيد الحياة - بإشراك ابنه البكر في العرش، وساد خلفاؤه على هديه.

كانت سنوات حكم امنعهات الثاني وسنوسرت الثاني على قدر كبير من الخمول وعلى كل حال فإن وثائقها قليلة، سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٥٠).

إنه من أعظم قراعنة مصر، وقد جاء الزمن ليجمل من ذكراه التى أضحت مصدر العديد من الخرافات التي جمعها الإغريق، كان قائداً فاتحاً فرحف على فلسطين، وفي النوبة واصل إنجازات أمنمصات الأول وسنوسرت الأول بعد أن أهملهما سلفاه على أقل تقدير – ان لم يكونا قد تخليا عنها، ولكنه شن أربع عملات استطاع من خلالها أن يعيد الأوضاع إلى سابق عهدها. واهتم بحماية فتوحاته فشيد القلاع والحصون.

وانتهت الأسرة الثانية عشرة بسنوات حكم الملك امتمحات الرابع وسويك تقرورع التي كانت تقتقر إلى أي أمجاد، ولا

تعرف عنهما شيئاً سوى ان اضم ملال الأسرة الماكمة قد سار بخطى متسارعة في عهدهما .

لم تسجل العجالة السريعة التي قدمناها لتاريخ ملوك الأسرة الثانية عشرة ماحققته هذه الأسرة من إشعاع في الخارج وفي الداخل، وقد كان ازدهار مصب محصلة لتشاط ملوك هذه الأسرة بأسرهم، وإذا كان الأمن قد اقتضى من امنمحات الأول أن يعضُّ الطرف بعض الشئ عن الروابط التي كانت تربط حكام الأقاليم بقرعون، فقد كان أجل هذه السياسة قصيراً، ففي عهد ستوسرت الثالث أصبحت سلطة الملك مطلقة من جديد، إلى حدُّ إلغاء منصب «حاكم الإقليم»، وهكذا هُبِعد أنّ استعبدت سلطة اللك، أَخَذَت الأسرة الملكية تستصلح أرض البلاد وني مقدمتها القيوم التي حواها حكام البلاد إلى واحة حقيقية، فشادوا على مقرية منها مقار إقامتهم الرسمية. كما كان هؤلاء الفراعنة بِنَائِين عظاماً ـ وأضحت مصدر مدينة لهم بمجموعة من التحصينات في جنوب البلاد وشرقها، تحميها من أعدائها، وكان قصر امتمحات الثالث في هوارة ذا شأن عمليم، فتولدت عنه حكاية إغريقية خرافية --هي حكاية اللابيرانت (أو قمس التيه)، أما فيما يتعلق بروابط مصدر بالبلدان الأجنبية فيبدو أن علاقات مصدر بسوريا وبيبلوس كانت وطيدة وودية. وقد تساحل البعض - دون إجساف السقيقة -عما إذا كانت فينيفيا لم تخضم في عهد الأسرة الثانية عشرة

لإدارة حاكم مصرى، وانتظمت عملية استغلال سيناء وخرج المصريون في حملات تجارية إلى بلاد بونت - وامتدت حدود مصر جنويا لتصل إلى سمنة (٧٠ كم جنوبي وادى حلفا، راجع الخريطة رقم ١) - حيث أقيمت منطقة محصنة حق التحصيين - على قدر كبير من التشعب والتعقيد، فمنعت من الآن فصاعدا القبائل السودانية المشاغبة على الدوام من أن تتوغل داخل محمر، وباعتماد ملوك الأسرة الثانية عشرة على تحصينات الجندل الثانى المنيعة، استطاعوا أن يدفعوا بالحمادت التجارية إلى قلب السودان، وقد احتفظت مدينة كرما جنوبي الجندل الثائث (راجع الشريطة رقم ١) ببصمات هذا النشاط عند المستوى القديم من أمرا محققاً، منذ هذا العصر، فمازالت معرفتنا بها قاصرة جداً، مما يحول دون أن تعرض لها، بيد أن هذه الروابط قد تأكد مجودها، على ماييدو، عن طريق فينيقيا.

وهكذا فإن مصر في فلل الدولة الوسطى، كانت ذات تنظيم داشلي صارم، ويحميها في الجنوب وفي الشمال الشرقي نظام تحصينات منيع حتى صارت لا تخشي شيئا من الخارج، ولكن هذا الأمن كان في واقع الأمر عابراً، لاعتماده على قوة السلطة المركزية من جانب، وعلى ضعف أعداء مصر الاسيويين من جانب أخر.

ولكن هذين الشرطين اللازمين لأمن مصر تقوضنا خلال عدة سنوات،

عصبر الانتقال الثاني ۱۷۸۵ – ۱۷۸۵ ق ، م

إن عصر الانتقال الثاني هو بالتأكيد أكثر عصور تاريخ مصر غموشياً، وأقل هذه العصبور من حيث ماتعرفه عنه، ولا يزال الجدل دائراً في وقتنا الراهن حول مدته، فبعد أن ساد الاعتقاد بأن مدته كانت ملويلة جداً (فإذا جمعنا الأرقام التي يقدمها لنا مانتون عن الأسرات ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٧ التي تؤلف هذا العصير نصل إلى مجموع كلي يساوي ثلاثة وثمانين وخمسمائة وألف سنة!) فإن من المتفق عليه، بشكل عام، في الوقت الراهن - أن هذا العصر لم يستعن لأكثر من مائتي سنة -- بل إن أحدث هذه التظريات تقدم رقماً أقل بكثير، إن هذا العدد الهائل من الملوك الذين حكموا مصبر خلال هذه البرهة الزمنية القصيرة تسبيأء يمكن تفسيره على أساس أن هذه المرحلة الانتقالية كانت تتكون من أسرات «متوازية»، فتحكم إحداها في الشمال وغيرها في مصير الوسطى وأخرى في الجنوب، ومن المحتمل أن يقدم ذات يوم مؤرخو الشرق الأدنى الأسيوي بعض الإيضاحات حول التتابع الزمني لهذا المصرر فالعديد من نقاط الإتصبال كانت تربط مصر سأسها أنذاك. وقد يكفينا أن نحدد يعض التواريخ على الجانب الأسيوى للوصول إلى نقاط استدلالية كافية بالنسبة لصر.

وأيا كانت مدة عمس الانتقال الثاني، قمن المكن أن نميز بين

مراحل ثلاث - وتبدؤها بمرحلة الأسرات، حيث ظل الملوك المصريون يحكمون بمقردهم، ثم مرحلة غزو واغتصاب أجتبى، وأخيراً مرحلة استعادة المصريين للبلاد، وبالطبع لم تفصل بين الأحداث في واقع الأمر مثل هذه الحدود القاطعة. فقد بدأ غزو الهكسوس في المرحلة التي لم تكن قد شهدت بعد تقويض النظام الملكي (بل إن البعض قد حدد بدايته منذ الأسرة الثانية عشرة). كما أن استعادة المصريين لبالاهم قد بدأ خلال عهد الغزاة الهكسوس،

الأسرتان ١٣ و ١٤ والملوك الوطنيون الأواشر

لا تعرف عن الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة سوي أسماء ملوكها الفراعنة، وفي البداية كانت هيبة الأسرة الثانية عشرة لاترال قوية بتأثيرها إلى حدّ أن حمل الملوك أسماء امنمحات وسنوسرت رغم أنه من المستبعد أن يكونوا من سلالة هؤلاء الأفراد، ولا تعرف شيئا تقريباً عن مسار الاضمحلال الزاهف، وإن بدا أن حكم امتمحات - سعوبك حوتي - وهو أول ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد امتدّ إلى مجمل تراب مصر، وينسحب نفس الشئ على مايبدو على خلفه المباشر «سي عنخ وينسحب نفس الشئ على مايبدو على خلفه المباشر «سي عنخ تاوى - سخم كارع ويصبح التحقق من ترتيب تعاقب الموك بعد هذين الفرعونين من أكثر الأمور مععوبة، كما أننا لم نعد نعرف إلى أي مدى امتد سلطانهم، وكانت أعدادهم من الكثرة بحيث

تسامل البعض ما إذا كانوا «منتشيين» لأجل محدود قحسب، وكأن النظام الملكي ميالاً على ماييس إلى أن يحتمى بالجنوب، فاستقر به المقام في منطقة طيبة. بيد أن كشفا موفقاً بمدينة بيبلوس يشبير إلى أن أحد الملوك المدعوين «نقرحوتب» (راجع الجدول في آخر الكتاب) كان لايزال يتمتع على ماييس بقس من النقوذ في فينيقيا. ولا نعرف شيئا عن الانتقال من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة الرابعة عشرة، ويبدو أن القوضي قد تقاقمت بسرعة بالغة، وعندئذ حسب رواية مانتون، بدأ غزو الهكسوس، ولكن الغزاة كانوا قد استقروا لمي واقع الأمر في شرق الدلتا منذ بداية الأسرة الثالثة عشرة. ومن الراجع أن حركة انتشار الهكسوس قد تزايدت غيما بين ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأواخر وأوائل ملوك الأسرة الرابعة عشرة، وفي حقيقة الأمركان «شحسي» (النوري») - وهو أشر ملوك الأسرة الرابعة عشرة، يعتبر نفسه -- منذ ذلك الوقت --تابعاً للهكسوس، ومن ثم فإن الغزو كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة جدأ،

الهكسوس

ورد اسم «الهكسوس» عند مانتون، وهو ماييدو تصحيف الاسم المصرى المركب «حقا خاسوت» الذي يعنى «زعيم البلدان الاجنبية»، ولم ينحدر جميع هؤلاء الأجانب من أصل عرقى واحد، ومع ذلك فقد كان أكثرهم من البدو الساميين على الأرجح، إن غزو، الهكسوس مرتبط بحركة الهجرات الواسعة التي عمّت جميع أرجاء

إسيا، ويرتبط بالغزو الأرى الذي حدث في الألف الثائي للشرق الأدنى، فاستقر الحيثيون في الأناضول حوالي عام ١٩٢٥ ق.م والخاسيون في بأبل والحوريون في ميتاني (راجع مادحق الكتاب: الخريطة رقم ٢)، وأثناء زحفها دفعت هذه الشعوب البدو الساميين المتواجدين أمامها في اتجاه الغرب، فهذه الموجه السامية – وقد انضمت إليها عناصر أخرى ربما كانت هندو أوروبية – هي التي ترفات إلى داخل مصر،

ويعد أن غزا المهكسوس الدلتا، حيث قاموا بتحصين مدينة أواريس ليتختوا منها عاصمة لهم، واصلوا زحفهم في بداية الأمر حتى منف، ثم تجاوزوها. لقد تأسست أواريس عام ١٧٣٠ ق.م، تقريباً أي بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة بمائة وثمانية وخمسين سنة. ويحتمل أن ملوك الأسرة الثانثة عشرة قد نجحوا لفترة طويلة إلى حد ما في وقف زحف الغزاة في الدلتا، حتى إذا أنتهت هذه الأسرة وإصل الهكسوس تقدمهم، انقضت إذن فترة طويلة والدلتا خاضعة للسيطرة المشتركة لكل من الهكسوس والمسريين الذين احتفظوا فيها بقس من السلطة السياسية، واكننا لا نعرف حقيقة العلاقات القائمة بين المنصرين، ومن السهل علينا أن نتخيل البدو الغزاة وقد اكتفوا بسلب السكان المليين وفرض الإتارات عليهم، واتصرافهم عن شئون الإدارة، في حين كانت الحكومة المحلية الأمرية، من ناحيتها أضعف من أن تتصدي لهم، فقبلت الأمر

الواقع، ولكن كان من المحال أن تستمر هذه الأرضاع، لقد ظلت أعداد جديدة من الغزاة تقد دون انقطاع لتدهم الوافدين الأوائل، ثم بدأ الهكسوس تدريجيا ينظمون معقولهم فاختاروا من بينهم زعيماً رحيداً، تولى فتح مصر بأسرها. وسواء أكانت الإدارة المصرية قد بلغت خلال ذلك العصر مستوى من الانحلال التام، أم كان الوافدون الجدد قد اكتسحوا الجيش المصرى بما لهم من قوة عسكرية تفوق قوة المصريين، بقضل اعتمادهم على تنظيم أو تسليح لم يكن المصريون قد توصلوا إليه بعد، يبقى أن انتصار الهكسوس كان خاطفاً على مايبدو، واحتفظ عنه المصريون يذكرى مضيفة، ربما بالغت منها الدعاية الملكية، ولكنهم ظلوا ينكرونه فيما بعد على الدوام.

إننا نفتقر إلى الوثائق التى تعيننا على عرض وقائع غزى ملوك المكسوس لمصر واستقرارهم فوق مجمل ترابها، ومن بين أسماء الملوك الأجانب السنة التى ومعلننا عن طريق مانتون، لم نتحقق سوى من همسة أسماء منها وجدت مدونة على الآثار المصرية، هى: «شيان» و «أبيبي الأول» و «أبيبي الثاني» و «عاسيح رع» و دهاقتن رع - أبيبي الثالث»، ومن الراجح أن مدة حكم هؤلاء الملوك كانت قرناً من الزمن وغطوا القسم الثانى من عصر الإنتقال الثانى - ومازال ترتيب تعاقبهم أمراً غير مؤكد، ماعدا بالنسبة لأبيبي الثالث الذي يعتبر يقيناً آخر

ملوك الهكسوس بالنظر إلى أنه كان في سدة الحكم في أواريس عندما طرده منها المصريون، ومن ناحية أخرى، فمن الراجح أن سيطرة الهكسوس على مجمل البلاد كانت قصيرة الأجل، فسرعان مافقنوا سيطرتهم على مصر العليا ليقتصر سلطانهم على الدلتا مما سهل على المصريين تحرير بلادهم، ومن جانبهم فقد انتهز السودانيون التوبيون فرصة اضحملال النظام الملكي المصرى وبعد ملوك الهكسوس الذين استقروا في الدلتا، لإقامة مملكة مستقلة جنوبي الجندل الأول، وإلى هذا المصر ترجع على مايبو مملكة كوش الموحدة الأولى التي اتخذت على مايحتمل من مكيا عاصمة لها.

الأسرة السابعة عشرة وتحرير مصر

الأرجح أن الهكسوس عندما غزوا مصر اكتفوا في معظم الأحوال بفرض دفع الجزية مع الإبقاء على الإدارة المصرية كما هي، لقد عادت مصر لتنقسم في واقع الأمر إلى ثلاثة أقسام، ففي الدلتا ومصر الوسطى كان الهكسوس يحكمون حكماً مباشراً، أما مصر العليا، فكانت خاصعة لتبعية الأجتبي وإن ظلت مستقلة من الناحية العملية. وأخيراً كانت النوبة – بلاد كوش – قد استعادت حريتها ويحكمها سوداني، وفي أول الأمر، انقسمت مصر العليا – على مايبدو – إلى عدد من المالك الصغيرة، وفرض على عليها ملك طيبة نوعاً من الإشراف، وهكذا وقع مرة أخرى على

عائق سنادة طبية مهمة توحيد السارد، وحمل أوائل هؤلام الملوك الطيبيين الماصرين للهكسوس لقب وانتقبه أو وسويك إم ساف»، ولا تعلم شيئًا من تشاطهم، عدا أنهم قامها تدريجياً بتجميع أقاليم الجنوب من حوالهم، وكان هؤلاء الملوك الطيبيون تابعين من الناحية النظرية للهكسوس المقيمين في أواريس. ومن الراجح أن الحرب للعلنة مند المحتلين الأجانب قد بدأها تاسم هؤلاء الملوك الصنعايدة، وهو «سنقان رع -- تناعبا»، وقيد تمّ العثور على مومياء هذا النك ورأسها مششتة بالجراح، مما حمل العلماء إلى التسليم بأن «سقان رع» قد قتل في ساحة الرغي. (بل ظن الطبيب الذي تولى فحص المومياء بائه توصل إلى ظروف مصرع الملك)، ولكن حقيقة أن المصريين قد تمكنوا من حمل الجثمان وتحتيطة هي دليل على سيطرة الجيش المصري على أرش المعركة، إنه افتراش لبق ريارع، ولكن يصبعب التحقق منه. هُمِنَ الْمُكُنِّ أَنْ يَكُونَ الْمُلَّكِ قَدْ أَقِي حَتَّفَهُ نَتِيجَةً اغْتِيالُهُ أَو حَرِبُ أهلية وإن خلل أنصباره محتفظين بالسلطة، وأي كان الأمر، فقد استمرت الحرب في عهد ابن «سقان رع وخلفه «كامي» الذي نجح في إلماق الهزيمة بالهكسوس شمالي هرمويوليس (الأشمونين - حالياً) ثم واصل المعركة إلى الشمال، ويخبرنا نص اكتشف حديثاً في الكرنك أن ملك الهكسوس قد سعى إلى التحالف مع ملك كوش ليرفع من قدراته الدفاعية في مواجهة

كامى وأن المصريين شنوا غارة على أواريس، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة.

كان أخر عمل على طريق التحرير من نصيب خليفة كامي وأخيه وأحمس الأسرة الثامنة عشرة، عندما سينجع في تحرير مجمل تراب محسر، وأحمل أحمس النضال حتى وقف مرة ثانية أمام أواريس فضرب من حولها الصصار واستولى عليها، ثم طارد الغزاة حتى جنوب فلسطين، ويضع هذا النصر نهاية لعصر الانتقال الثاني ويه تبدأ الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية الطيبية الثانية،

إن مانعرفه عن تاريخ عصر الإنتقال الثانى ضحل للغاية بحيث لا نستطيع أن نقيم ماترتب عليه من نتائج بالنسبة لتاريخ مصر اللاحق، كانت الكارثة قاسية وشاملة فهزّت البلاد هزأ، فحتى تلك اللحظة كان البدو الأسيويون بالنسبة للمصريين جيرانأ مزعجين ولكن دون أن يكونوا خطرين، وكان الهدف على ماييد من إقامة دجدار الأمير، الذي شاده ملوك الأسرة الثانية عشرة عبر برزخ السويس، هو أن يحول الى الأبد دون قدوم البدو السلابين بوزخ السويس، هو أن يحول الى الأبد دون قدوم البدو السلابين هذا الاحتياط كان غير كاف، وشرعت أسيا القوية تهدد من الآن هناعداً أبواب مصر، تلك هي الحقيقة الجوهرية التي ستحدد الأن مجمل تاريخ مصر،

ه -- النبالة الصبيئة (۱۸۸۰ -- ۱۲۰۰ ق ، م)

ينتهى تاريخ مصر الكلاسيكي مع ألنولة الحديثة ومع نهاية هذه المرحلة لن تشهد مصر ثانية العظمة والقوة اللتين بلغتهما في ظل كل من النولة القديمة والنولة الوسطى والنولة العديثة، على التوالي، وسيتحول تاريخها إلى عصر انحطاط ممتد أشبه بمرحلة انتقالية ثالثة، لن يشرق لها غد، ولكن قبل أن تبخل مصر مرحلة الاحتضار الطويلة هذه، عاشت عصراً مشرقاً جِداً: عصر الدولة المدينة، ويقف هذا العصس في العديد من قسماته على النقيض مما سبقه من عصور، وبدايةً، فإذ جنت منطقة طبية ثمار مقاومتها العنيدة لمختلف ألوان العسف، فقد أضبعت مركز مصبر الإداري بعد أن ظل قائماً حتى عصر الانتقال الثاني في منف وفي مصر الوسطى، ويستجيب انتقال مقر المكومة لضرورة جغرافية جديدة، غقد رّأى أن التوسع منوب الجنوب قد اكتمل بعد أن وصل إلى الجندل الرابع على مقربة من نياتا (راجع الخريطة رقم ١) ومن الأن مبارية مصبر تمتد في واقع الأمر من غط عرض ١٧ وحتى البحر المتوسط بطول ٢٢٦٠كم على امتداد وادى النيل، وكان من الطبييمي لإمكام الإشراف علني هذه الأراضي الشناسعة واستثمارها، أن تقام العاصمة الإدارية على مقرية من مركزها بقدر المستطاع، ومما زاد من ضرورة ذلك الأمر، أن مصب

أمبيحت تستمد الآن جانبا كبيراً من مواردها من خالل أمير اطوريتها الإفريقية: الذهب والمواد الأولية (كالخشب والجلود والعاج والصمغ والأهجار نصف الكريمة الخ ...) والقطعان واليشر على وجه الخصوص لإمداد الجيش والشرطة، وكان من المستحيل على مصر التغلغل في أسيا لولا ارتكازها على مؤخرتها الإفريقية. وإذا كانت النولة الحنيثة -- بالمقارنة مع غيرها من عصور الوحدة -- تختلف من حيث موقع عاهممتها ، قائها تتمين أيضًا دون أدنى هنك بسياستها الخارجية، فبينما كانت السياسة العسكرية للنولة الوسطى وللنولة القديمة، على وجه الخصوص، تتمين بانها دفاعية (مع عدم استيعاد شن «الغارات» على العدو) فقد دشكت البولة المديثة سياسة الفتوحات أومانسميه بلغة العصير - سياسة استعمارية، وكان هذا الموقف جديداً على مصير، كما سيق أن لاحظنا أن سياسة مصر التقليدية تجاء الآسيويين كانت قد تجاوزتها الأحداث. إن مصر التي قاست من غزر أجنبي استمرّ قرنين من الزمن، سوف تسعى إلى تجنب تكرار مثل هده الكوارث، بالتوسيم شرقاً قدر استطاعتها، وستعمل جاهدة على إيجاد أكبر مسافة ممكنة بيشها وبين بدو آسيا للشباغيين، بعد أن عتدوا فيما بينهم شكلاً من أشكال الإتحاد الكنفدرالي، بتحريض من المينانيين، وهم الغزاة الأريون الذين حطول رحالهم فيما بين نهر العامسي وأعالى نهر القرات، وسوف تترك هذه السياسة الجديدة

بصماتها العميةة في الحضارة المصرية. فرغم الغزوات والتوغلات الأجنبية ظلت مصر حتى هذا العصر تعيش على رصيدها الخاص، ولما توغلت مصر بعمق في الشرق فإنها أقامت علاقات حميمة مع كبرى هضمارات الشرق الأدنى الآسيوي، وإن كانت قد بقيت على أصالتها وعلى مصريتها إلا أنها خلصت من كل ذلك وقد تبدلت تبدلاً كبيراً، في زيها وفي تسليحها، بل وفي حياتها اليومية ذاتها، فالذوق المصرى الذي ظل حتى الأن بالغ البساطة والاعتدال، بات يميل إلى بذخ وترف شرقيين إلى أقصى حد، والاعتدال، بات يميل إلى بذخ وترف شرقيين إلى أقصى حد، التثاقل أحياناً في مقبرة توت عنخ أمون، ولا داعى إلى الإفراط في الشكرى، فإن الفن في هذا العصر قد اكتسب سلاسة ورقة في الشكرى، فإن الفن في هذا العصر قد اكتسب سلاسة ورقة بقدر ما فقد من قوة، إنه جانب آخر من جوانب العبقرية الصرية.

كما سبق أن لاحظنا مراراً لا يبهد فاصل واضح بين الأسرة عشرة والثامنة عشرة فأخر ملوك الأسرة السبابعة عشرة هو أيضاً في ذات الوقت أول فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أن مايبر تغير الأسرة واسم الفرعون هو الإستيلاء على مدينة أوراريس الذي يضع حداً لاحتلال الهكسوس ويحدد بداية توحيد مصر من جديد،

أحمس ١٥٨٠ - ١٥٥٨ ق ، م

وهومعروف بقضل تضاله ضد الهكسوس، على وجه

الخصوص، ويقدم لنا أحد النصوص صورة إجمالية عن وقاشع هذا الصراع والاستيلاء على أواريس، ولا نعرف شيئا عن نشاطه في الداخل، اللهم إلا أنه قد شيد معابد جديدة للزَّلهة. وأخذ الدين يتسرب بالتدريخ إلى التاريخ السياسي نفي مصر لا يصرع اللك أعداءه، بل الإله هو الذي يسوع للملك أن يهزمهم، وكما سخلاحظ فيما يعد لم يكن الأمر مجرد صيغة بالأغية، لقد بدأت الحكومة تتطور شيئا فشيئا نحو نظام ثيرقراطي إلى أن جاءت اللحظة التي أصبح فيها كيار كهنة أمون سادة البلاد المقيقين، وبعد أن قام أحمس بتصفية الفطر الأسيوي في أعقاب الاستيلاء على شاروهين في فلسطين، استكمل نشاطه التوحيدي، فضم النوية إلى مصر بعد أن كانت قد تحررت خلال عصر الانتقال الثاني وتحالفت على ما يحتمل مع الهكسوس، وطوال عهده توالت حركات المصيان في بلاد كوش واضطران يجهِّز ثانت حملات إليها، ويبس أنه وصبل حتى جزيرة مناي بين المتدلين الثاني والثالث، ومن الراجح أن أحمس قد قام مرة في نهاية حكمه بحملة إلى قينيقيا,

واصل امتحوت الأول بن أحمس عمل أبيه، وحذا حنوه فشيد العديد من المعابد وشن حملة إلى النوبة ووطد مركزه في وادى حلفا ، ولا تعرف شيئا عن نشاطه في أسيا، وإن كان قد أضطر هو أيضاً أن يقود حملة إليها بالنظر إلى أن خلفه قد أعلن

عند اعتلائه العرش أن مملكة مصد تمتد حتى نهر النرات، بيد أن أحمس لم يصل بالتأكيد إلى هذا المدى،

تحوتمس الأول - (۱۵۲۰ - ۱۵۲۰ تي . م)

لم يرزق امنحوب الأول من زوجته الشرعية سوى إناث، بيد أنه كان للإناث في مصر، على ماييد، حقوق على عرش أبيهم، دون أن يكون لهن الحق في أن يحكمن بمفردهن، وقد تسلم أحد أبناء امنحوب غير الشرعيين السلطة وحمل اسم تحوتمس الأول، ولكن تدعيما لحقه في العرش أو ربما لاكتساب هذا الحق، تزوج من أخته غير الشقيقة «أحمس» إبنة امنحوب الأول، والملكة الشرعية. وإذ واصل تحوتمس الأول سياسة أسلافه المباشرين في النوبة، فقد زحف جنوبا ليصل إلى الجندل الرابع، أما في سوريا، فقد وصل حتى نهر الفرات، حيث أقام لوحة حدودية، ولكن ربما كان الغرض من ذلك دون ريب مجرد غارات سلب ونهب هدفها جمع الجزية،

تصوتمس الثاني -- (١٥٢٠ - ١٥٠٥ ق ، م)

ان مشكلة وراثة العرش التي كانت قد طرحت عند وفاة امنحوت الأول، طرحت نفسها من جديد، وفي ظروف مماثلة، عند وفاة تحوتمس الأول الذي لم يرزق من المواليد الشرعيين سوى بإناث، وفي هذه المرة أيضاً اعتلى عرش البلاد ابن غير شرعى هدو تحوتمس الثاني، ولإضفاء الشرعية على الوضع، تزوج

تحوتمس الثانى من أخته غير الشقيقة: حتثمبسوت، الإبنة الشرعية لتحوتمس الأول، وشبهد حكم تحوتمس الثانى حركتى تمرد، الأولى في بلاد كوش والأخرى في سوريا، وقمع الملك كلتاهما، ولكن تكرار هذه الأحداث يلقى الضوء على هشاشة وفتوحات الجيش المصرى، فيشن هذا الجيش إغاراته ليعود أدراجه كلما انتهت مهمته، فلا وجود لاحتال حقيقى، وإذا حدث حدفة أن خلف المصريون وراءهم قوات متحصنة في القادع لمراقبة البلاد المحتلة فإن الهدف من هذه القلاع كان بالأحرى هو حراسة طريق من الطرق، أكثر منه حكم أهل هذه البلاد.

تمرتمس الثالث ومتشبسوت

إن تحوتمس الثانى، شانه شان أبيه، لم يترك عند وفاته من الأبناء الشرعيين سوى إناث وابن غير شرعى أنجبته منه إحدى المطيات. وكنا ننتظر أن نرى هذا الابن وقد تربع فى سدة الحكم، أسوة بما جرى مع تحوتمس الأول وتحوتمس الثانى، وهو ماحدث بالفعل فى بادئ الأمر. فعند وفاة تحوتمس الثانى أعلن ابنه غير الشرعى تحوتمس الثالث ملكاً. ولكنه كان لايزال فى مقتبل العمر، فتولت عمته حتشبسوت، زوجة تحوتمس الثانى، الوصاية على العرش، وشيئاً فشيئاً، تحولت هذه الوصاية إلى ملك حقيقى فحكمت حتشبسوت بمفردها اثنين وعشرين سنة، دون أن ندرى أين قامت بإبعاد ابن أخيها، ومن المثير حقاً أن نعرف

موقف كهنة أمون خلال هذه الفترة بالنظر إلى أنهم كانو هم الذين أعلنوا تحوتمس الثاني، أعلنوا تحوتمس الثاني، والكننا نلاحظ أن كبير كهنة أمون كان فيما بعد من المطلعة المون حتشبسوت التي دعمت سلطتها فأعلنت نفسها إبنة الإله أمون ذاته، فمن الراجح إذن، أن كهنة هذا الإله قد لعبوا دوراً بارزاً في خلافة العرش، سواء راوغتهم حتشبسوت أو أنهم اضطلعوا بهذا الدور من تلقاء أناسهم.

كان حكم حتشيسوت على الصعيد العسكرى هادئاً، إما لعدم ثقة الملكة في الجيش أد لعدم قدرتها على قيادته بنفسها، وحلت الحملات التجارية محل الصعلات العسكرية وعلى رأسها تلك المتجهة إلى بلاد بونت، وتتألق هذه المرحلة بأبهة نضرة، على الصعيد القنى، ويظل معبد حتشبسوت الجنائزى في الدير البحرى الذى شيده أثيرها ومهندسها المعمارى سننموت أية من آيات الجسارة والاتزان.

تحرتمس الثالث - (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م)

استطاع أن يستعيد السلطة في أعقاب رفاة حتشبسوت، ويدافع مما كان يحمله من ضغينة ضد عمته، أخذ يضطهدها بعد وفاتها — اضعلهاداً حقيقياً. فأمر بقشط اسمها من على جميع الآثار واستبدله إما باسمه أو باسمى أبيه وجده، ولكن لحسن حظنا لم يقنع تحربهس الثالث بدور المخرب بل واصل تقاليد عائلته فشيد العديد من العمائر، لاسيما في طيبة،

ولكن يدين تحوتمس الثالث بأعظم أمجاده لنشاطه العسكري، فكان بكل تأكيد من المع قراعثة مصر، قهو القرعون الذي مد سلطة بالدة إلى أبعد مدى، فبعد أن ضمنت له السياسة التوبية الأسلافه الهدوء في الجنوب، استطاع أن يتحول صوب الشرق الذي أضحى مصدر القطر الرئيسي على القراعنة، وبالقعل تلحظ في أسيا أن الميتانين قد استغلوا، على ماييدو، تجميد حتشبسوت لكل نشاط لها، ليشجعوا على قيام تحالف معاد للصر. كان هذا التحالف بزعامة ملك قادش وقام بتمصين آسيا مرة أخرى ضد المسريين، مما اشبطر تحوتيس الثالث إلى القيام بسبيع عشرة حملة للقضاء على هذا التحالف قضاء ميرماً ويسط الهيمنة المصرية من جديد على بلدان المشرق، حقيقة لم تكن جميع هذه المملات على نفس القدر من الأهمية، إذ لم يكن بعضها أكثر من مجرد حملات تفقدية مسلحة، وأخرى غارات تأديبية محدودة، هل تصرف تحوتمس الثالث وفقاً للخطط استراتيجي معد سلفاً؟ بيدق الأمر كذلك، وإن كان المرء معرضاً للوقوع ضحية وهم، كما أنه يستحيل تقييم المرقف تقييماً سليماً لافتقادنا إلى الوثائق، وبالقعل فإنه لم يقدم على الفور على مهاجمة الميتاني الذي كان عنويه الحقيقي والذي كان وراء حركات الثمرد شد مصر، فشرع يؤمن لنفسه أولاً قواهد راسخة، حتى قام في نهاية اللطاف بترجيه ضربته القاشبية.

وفي الحملة السنوية الأولى التي قادها تحوتمس الثالث، وقعت سوريا وفلسطين في قبضته، ثم قضى ثانث سنوات ينظم أحوال هذين البلدين، وركزٌ بعد ذلك اهتمامه على طرق مواصبلاته، وخلال حملته الضامسة استرائي على مينام في فينقياء فأصبح في مقدوره، من الآن فصاعداً، أن يتجنب الطريق البرى المسعراري الطويل، ومن ثم فقد ركب البحر عند القيام بحملته السادسة التي تمكنّ خلالها من الاستيلاء على قادش الواقعة على نهر العاصم ر (راجع الضريطة رقم ٢)، وهي المركز الرئيسي العدائه، ولكن القواعد التني أقامها لم تكن بعد على قدر كاف من الأمان، فثبت مدى شبعقها لما تشب تمرد في فينيقيا، ولذا كرَّس الحملة السابعة اللاستيارم على العديد من موانئ فينيقيا، وما أن فرغ من هذه الغزو حتى استشعر أنه اصبيح من القوة ليشن هجوماً عظيماً. فكانت المملة الثامنة، فرحل بحراً ونزل براً في فينيقيا واخترق سوريا وبلخ نهر القرات، قعيره على مأن سفن شيدت بناء على أوامره في بيبلوس وحملها معه عبر الصحواء، والتقي بالميتانيين فأرقيم يهم الهزيمة وطاردهم وسط الجبال، وكان لهذا النصس وتع الصناعقة، قلم ين الميتانيون وحدهم أنه من الحكمة أن يدفعوا الجرية للمنتصر، بل أن جيرانهم أيضنا من أشوريين وبابليين وحيثيين الذين لم يقاتلوا مصر كان لهم رأى مماثل،

ويقضل هذا الانتصار على الميثاني صار قسم كبير من الشرق

الأدنى الأسيرى خاضعاً للنفوذ المصرى، ولم تكن الحمالات التسع التالية سوى حملات «للحفاظ» على المكاسب السابقة ، ويتضع في حقيقة الأمر أن البلد المفتوح لا يتم احتلال جميع أرجائه ، ويكتفى فرعون بأن يصطحب معه إلى مصر أبناء الأمراء والزعماء المهزومين، وفي مصر يأمر بتنشئتهم قبل أن يعيدهم إلى بلدهم ممثلين للحضارة المصرية ، وكان هذا الأسلوب غير كاف إلى حد ما : وسوف ترى أنه رغم قوة موقف مصر في أسيا إلا أن الأمر كان يحتاج على الدوام إلى غارات مسلحة جديدة تدعيماً له ، وفي عام ١٤٦٤، على أيام تحوتمس الثالث نفسه، عقد أمراء قادش وتونيب (مدينة سورية حصينة ، على مقرية من نهر العامس) عام أخيراً ، ولكن قام المصريون بحملة جديدة استعاداً في أعقابها مدينتي تونيب وقادش معاً، وستظل أسيا هادئة على الأقل حتى وفاة الملك التي حدثت عام ١٤٥٠ .

وقرب نهاية حكمة اغتنم تصوتمس الثالث فرصة قيام السودانيين بحركة تمرد محلية على ما يرجح ، ليعزز من وجوده حتى الجندل الرابع ، ومن ثم «كانت مصر في عام ، ١٤٥٠ تمتد من نباتا عند النيل الجنوبي وحتى نهر الفرات ، وبلغت مصر أوج قوتها التي ما فتئت تضمحل فيما بعد بالتدريج وإن أمكن الحفاظ على هذه القوة لأكثر من قرن من الزمن ،

آمنحوت الثاني - ١٤٥٠ - ١٤٢٥ ق . م

أشرك تحوتمس الثالث، وهو على قيد الحياة، ابنه البكر في

العرش، ليجنبه ماعاني منه هو نفسه من متاعب أيام حتشبسوت. لقد خلف إذن امنحوت الثاني والده دون عائق، وكان حكمه هادئا في الداخل، وفي الشارج اغتنم سكان سوريا وفلسطين فرصة وفاة تحوتمس الثالث ليشقوا عصا الطاعة، ولكن امنحوت قمع تمردهم وأمر باعدام الزعماء السوريين السبعة الذين أسرهم أثناء حملته، وعلى كل حال، فقد شرعت الأوضاع في آسيا تتبدل، فالميتانيون الذين ظلت لهم الهيمنة حتى الآن، أخنوا يخشون فالميثيين (المقيمين في الأناضول)، فدفعتهم خشيتهم هذه إلى التقرب من المصريين.

تحرتمس الرابع -- ١٤٢٥ -- ١٤٠٨ ق . م

لا يوجد أدنى شك فى أنه لم يكن ابن أمنحوت الثانى البكر، وإن كنا لا نعرف كيف وصل إلى سدة الحكم، ومع ذلك فقد جرت خلافة العرش دون صدام شكنه شأن سلفه، ساد الهدوء سنوات حكمه، وجهز حملتين، الأولى إلى السودان والثانية إلى أسيا، وكانت هذه الأخيرة تفقدية أكثر منها حملة بمعنى الكلمة، وبالفعل كانت الأوضاع فى أسيا قد تغيرت تغيراً ملحوظاً حتى بلغ خطر الحيثيين حداً دفع بالميتانيين، وهم أعداء المصريين القدامى، إلى السعى دون تردد في طلب صداقة فرعون، فأبرم البلدان معاهدة السعى دون تردد في طلب صداقة فرعون، فأبرم البلدان معاهدة مهرها تحوتمس الرابع بزواجة على مايبدو من أميرة ميتانية، فدان الها ابنه أمنحوت الثالث، على مايظن، بما يجرى في عروقه من دم هنده أودويي،

امتمرتب الثالث -- ١٤٠٨ -- ١٣٧٢ ق . م.

خلف أباه بشكل طبيعى، وكثيرا ماخرج في رحالات صبيد في بداية عهده ولكن ببدو أنه ازم الهدوء في قصره فيما بعد، وتزوج من امرأة ذات أسول غامضة وربما كانت أجنبية، وعرج أمنحوت على السودان حتى وصل منطقة الكرو التي رأى البعض أنهم قد تحققوا من وجودها في المنطقة المددة جنوبي نياتا والجندل الرابع مباشرة، ومن الراجح أنه لم يتدخل في أسبيا حيث بقى المتانى مع الميتاني سارى المقعول، واختار ملك مصر زوجاته من الميتاني ومن بابل، ولكن تطور الأوضاع السياسية في أسياء الذي بدأ في عهد جده، أخذ يتسارع باطراد واصطدم الحيثيون بالميتانيين الذين لم يتمكنوا من ردهم على أعقابهم إلا بمساعدة بالموات المسرية، ونجم عن تدخل هذه القوات أن تحول الحيثيون القوات المسرية، ونجم عن تدخل هذه القوات أن تحول الحيثيون

امنحوت الرابع - أخناتون (١٣٧٢ - ١٣٥٤)

شارك أمنحوت الرابع ابن امنحوت الثالث أباه في الحكم لعدة سنوات، وذاعت شهرته في تاريخ العالم، فعرف باسم «صاحب البدعة»، وفي عهده تبوأ الدين مكان الصدارة، ولكن لا ينبغي أن نغفل أنه ماكان للدين أن ينتظر عهد أمنحوت الرابع ليؤثر في السياسة المصرية، كما أن جانبا من إصلاحه الديني قد ولد في أفكار صيفت في عهد امنحوت الثالث، لقد مارس كهنة أمون منذ

بداية الأسرة الثامنة عشرة دوراً نشطاً في داخل الحكومة. ومن الممكن أن «ثورة» أمنحوتب الرابع النينية كان لها أصول سياسية، دون أن يعنى ذلك أن أمنحوت الرابع لم يكن صادقاً في موقفه الديثي، وبرما كان صوفي النزعة، ولكننا نفتق إلى المستثدات الموثوق بها للفصيل في هذا الشيق من المشكلة - لقد قيام بعمل ثوري حقيقي، سعى من خلاله إلى القضاء على ديانة آمون فأغلق معابده وشتت كهنته. وإذ لم يقنع بهذه التدابير الأولى، فقد هجر طبية وأقام حكومته في تل العمارنة في مصر الوسطى (راجع الخريطة رقم (١). وأخيرا غير اسمه امنصوتي، المركب من إسم آمون (آمن - بالمصرية القديمة) إلى إشناتون، وأمر بمص أسم أمون من جميم المدونات على العمائر، ويصفة خاصة من خراطيش من سيقور من فرامين: أمنصوت الأرل والثاني والثالث، وتشهد الديانة الى فرضها على مصر على نزعة توحيدية واضحة، وإن لم يضطهد غير أمون من الألهة، فالإله الأقل هو أتون - قرمن السمش، ولكن الجديد في الأمن بالنسبة لمصر، أن عبادة الإله لم تستهجب رجود تماثيل له حيث تقام شعائر في الهراء الطلق، وترفع مباشرة إلى الإله المتألق في السماء، ورأى البعض أنْ ورأه هذه الديانة تأثير أسيوى. بل ساد الظن أن اللك قد أخذ يها بعد تفكير وروية تشجيعاً لسياسة مصرية استعمارية في آسياء وهو أسعد مايكون عن المقيقة. «رفي الواقع كان امتحوته الرابع - من

ناحية -- لايييو مهتماً كثيراً بالوقف الخارجي، كما لم تكن عبادة آترن من ناحية أخرى، من اختراعه هو شخصياً، إذ كانت عيادته معروفة، من أيام أسبلاقه، كما أن إسم أتون كمسمى لقرص الشمس هو أمر ثابت منذ متون الأهرام العتيقة وأخيراً كان للكهنة مررهم في ثورة اختاتون الدينية، على مايبدو، ويرجين العبارة، فمن الراجح أن الجائب السياسي للثورة الأتونية، هو الذي حسم الأمور، وعلى كل جال، ققد كانت هذه الثورة قصيرة الأمد للفاية، وريما هُجِرت عبادة أتون في أيام إختاتون ذاته، وبيدو في هذا الصدد أن تفرتيتي، قد لبعث دوراً بارزاً في الثورة التي قادها زيجها، ورغم أنها لم تساعد على إقامة العبادة الجديدة، إلا أنها ظلت على كل وقيه لها، لقترة أطول من زوجها شخصياً. ومن جراء ما فعله أمنحوت الرابع فقد أصناب الوهن الأسرة الحاكمة، ومع وقاته استعاد كهنة آمون نفوذهم على الوجه الأكمل، وهكذا خسر خلقاء أمندوت الرابع هيبتهم ومكانتهم، وحبد كهنة أمون، بعد أن ساورتهم الريبة، أن تؤسس أسرة ملكية جديدة. وريما اغتنم التمالف الحيثي قرمية القلاقل التي نجمت عن الثورة الدينية غواصله ما حققه من نجاح، واستعاد ملك قادش سهل سوريا الشمالي، واستولى ملك عاموري -- وهو حليف أخر للحيثيين على المرانئ الفينقية التي تحتلها مصر، ولم يُقدم أمنحوت الرابع على أي عمل مضاد، واكتفى بإرسال محقق إلى

فينقيا، وياللغرابة، فقد تُبتُ ملك عامورو في المتلكات التي كان قد استولى عليها من مصر والتي سرعان ماشملت بيبلوس أيضاً، وياختصار، فقد اعترف امنحوت الرابع بالأمر الواقع، وتظاهر بالنظر إلى ملك عامورو على أنه تابع له، وثار البدو بدورهم في فلسطين فاستولوا على مجدو وأورشليم، وعبثاً استنجد أهل البلاد بمصر فلم يمدهم أمنحوت الرابع بئية مساعدات، وأخيراً استسلم بمصر فلم يمدهم أمنحوت الرابع بئية مساعدات، وأخيراً استسلم الميتاني حليف مصر تحت وطأة ضريات الحيثيين والأشوريين المتوالية والمتعاقبة، والآن وبعد أن أصبح للحيثيين اليد الطولى، فقد أرغموا ملك عامورو الذي كان يود أن يبقى مستقلاً في الوضع الذي ثبته فيه امنحوت الرابع المغموه على أن يوقع معهم ميثاق تحالف، نجد إذن أن نفوذ الحيثيين قد حل في كل محان محل النفوذ المصرى، حتى لم يبق شيئ يذكر من إنجازات تحوتمس الثالث العظيمة.

توت عنخ أتون - توت عنخ أمون

يحيط بخلافة العرش بعد أمنحوت الرابع الكثير من الغموض، فشانه شأن ملوك الأسرة الأوائل، لم يخلف من الواد سوى إناث، ويبدو أنه أشرك معه، قرب نهاية حياته، «سمنخ كارع» — زوج ابنته البكر، وأن كلاهما قد انضما إلى عبادة آمون. أما الملكة «نفرتيتي» التي بقيت في العمارنة فقد ظلت وفيه لعبادة الإله آتون. أما أمنحوت الرابع وسمنخ كارع» فقد وافتهما المنية في وقت واحد

تقريبا . والت السلطة إلى زوج الإبنة الثانية لأمنحوت الرابع، وهو «توت عنخ أتون» الذي كان لايزال صبياً في مقتبل العمر، فأقام على مقرية من نفرتيتي في تل العمازنة، بعد انقضاء ثلاث سنوات، وعلى أثر حادث لا نعرف عنه شيئاً - هجر «توت عنخ أتون» تل العمارنة، ورحل إلى طبية حيث اختار النفسه إسم «توت عنخ أمون». وإذ يقيت نفرتيتي بمفردها، فتأمرت على مايرجح ضده بالتعاون مع الحيثين، ولكن ودون جدوى، وتوفى توت عنخ أمون وهو في ريعان الشباب في الثامنة عشرة من عمره، ويعد حكم دام تسع سنوات، وسعت زوجته «عنخ إس إن أمون» إلى حمير.

منذ أواخر حكم امنحوت الرابع، وتصريف شئون سياسة مصر الضارجية لا يخضع للمك بل تولاها قائد عسكرى هو «حورمحب» الذي سوف تهيمن شخصيته القوية على نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ريثمايتولى السلطة بنفسه، وعمل «حور محب» منذ عهد امنحوت الرابع على استئناف الصراع في أسيا وجنوب فلسطين، حيث أخذ يدعم ما أمكن إنقاذه مما تبقى من مركز مصر،

كان «آي» من قدامي موظفي «أمنحوتپ» الرابع واستمد حقه في العرش بزواجة من أرملة «توت عنخ أمون» - ابنه أمنحوتپ

الرابع، وكان عهد «أي» قصير الأمد ويكتنفه التشويش، ولم يدم سوى أربع سنوات، وظل تصريف شئون السياسة الخارجية من المتصاص «هورمحب» الذي لم يكن دون شك بعيداً عن ارتقاء «أي» العرش،

«مورمسب» هو أشر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي لا يرتبط يها إلا يفضل ماذكره مانتون والمؤرخون، فهو لا يدين في حقيقة أمره بشيئ لهذه الأسرة، فلا ينتسب إليها سواء بقرابة الدم أق بالمساهرة. وريما كانت زهجته تمت إلى امنحوت الرابع بصلة القرابة، ولكن لم يكن يحق لها المطالبة بتاج البلاد، وأن اختياره هو شخصياً ليصبح ملكاً إنما كان يوحى من آمون. وكان «حورمحب» ذاته ينحس من عائلة من حكام الأقاليم وسرعان ما انخرط في سملك الجندية وتخصص فيها على مايبدو ، وكان قائد حاملي ا الأقواس في عهد «توبّ عنم أمون»، وكم كنا نود أن نتعرف بشكل أفضل على هذه الشخصية الغريبة، فبعد أن كان مؤيداً للملكين وتون عنيخ آمون» و «أي»، شهد عهد «صورمحب» ذاته رد شعل مناوئ لعائلة أمنحوتب الرابع, فاغتصب أثار توت عنخ آمون وكشط اسم سلفه من عليها ليستبد له باسعه. وأخيراً فقد حدّد بداية حكمه بوفاة أمنحوتني الثالث، وكأن امنحوتي الرابع وسمنخ كار م وتون عدم أمون وأي لم يوجدوا قطّ، وإذا صبح ما ورد في نص مرسوم صادر في عهده، قمن الراجح أنه أعاد للسلطة

المركزية وضعها وانصرف إلى درء مقاسد الموظفين، ومهما يكن من أمر فلا يبدو أنه واصل الحملات العسكرية بعد أن تولى الحكم، وحور محب هو المؤسس الصقيقي للأسرة التاسعة عشرة التي اختار لها - على ماييدو - أول ملوكها،

الأسرة التساعة عشرة وتجديد الهيمنة المصرية

إن الجيش كما نظمة كبار القاتصين من الأسرة الثامنة عشرة، بات يشكل من الآن قصباعداً قرة داخل النولة المصرية، قلم يكن من المستقرب إذن أن نراه يقوم بدوره في الحياة السياسية، فقد استطاع حورمحب أن يغتصب السلطة بفضل دوره العسكري السابق، قلما أمسيح طاعناً في السنّ، دون أن يرزق أطفالاً، على مايحتمل، فكر في قائد عسكري آخر، ليخفله على العرش،

رمسيس الأول (١٣١٤ - ١٣١٢)

بالنظر إلى أن «حورمحب» كان قد اختاره بنفسه، فقد تبوأ رمسيس الأول سدة الحكم دون عنا». وكانت تانيس - في الدلتا- (صان الحجر، حاليا) هي موطنه الأصلى، كان جندياً محترفاً، شائه شان والده من قبله، وسوف يحمل نفس الألقاب العسكرية التي تلقب بها حورمحب ذاته. ولا تعلم ما إذا كان مرتبطاً بصلة القرابة مع آخر قراعنة الأسرة الثامنة عشرة.

كان رمسيس الأول طاعنا في السن عندما اعتلى العرش، لذا فقد اشرك على القور ابنه سيتي الأول في العرش ليؤكد حق دريته

فى السلطة الملكية، وشهد عهد رمسيس الأول الشروع فى تشييد بهو الأساطين العظيم بالكرنك فى طيبة بالإضافة إلى حملة إلى السودان بقيادة سيتى، وهو بالاشك الفرعون الذى سيدعى سيتى الأول,

سيتى الأول ١٣١٢ - ١٢٩٨

مثل أبيه وفي حياة «حورمحب» ذاته، كان سيتى قد أصبح قائد حُملة الأقواس ووزيراً، وحيث أنه شارك أباه العرش فقد تسلم السلطة بشكل عادى، ومن علامات عهده البارزة العودة إلى سياسة المقترحات في الشرق، ويفضل سيتى الأول سوف تسترد مصد الشموخ والعظمة، صحيح أن رقعة الإميراطورية المصرية لم تصل أبدا إلى ماوصلت إلية في أيام تحوتمس الثالث، إلا أنها استعادت نفوذها المؤثر في آسيا.

اغتنم بدو آسيا فرصة تغيير الفرعون ليتمردوا وليستواوا على المخافر المصرية القائمة على امتداد الطريق البرى من مصر إلى فلسطين، وكان سيتى قاسياً فى قمعه للعصيان، فاستعاد المخافر وتوغل داخل فلسطين. ويتشجيع من الحيثين حاول أهل البلاد أن يتصدوا للمصريين، ولكن سيتى استطاع أن يهزم المتحالفين قبل أن يجدوا متسعاً من الوقت لالتقاء قواتهم، وبعد أن تسيد على فلسطين تقدم فى سوريا حتى وصل الى مستوى مدينة صور، وهكذا استردت مصر مكانتها كقوة آسيوية.

والأسف فإن الحدود الشرقية، جهة ليبيا، والتي ظلت هادئة منذ الدولة القديمة، كشفت فجأة عن خطر جسيم، إذ كانت القبائل الأرية قد انتشرت في جميع أرجاء أوروبا الجنوبية، ثم عبرت البحر وحطّت الرحال في ليبيا، وبدأت على الفور محاولاتها التسال إلى مصر، تمكن سيتي الأول أن يردعهم بقدر كبير من السهولة، ولكن ظل الخطر قائماً. وسوف يثير لخلفائه مشاكل خطيرة، وبعد أن هدأت الأوضاع في ليبيا، عاد سيتي مرة أخرى إلى أسيا ليواصل حملته، ومعلوماتنا عن هذه الحملة ضحلة للأسف، فنعرف أن سيتي قد استطاع أن يوقع الهزيمة بالحيثيين قرب قادش واكنها لم تكن على مايظن معركة حاسمة، نظراً إلى أنه لم يتوصل إلى فتح سوريا من جديد،

رمسيس الثاني ۱۲۹۸ – ۱۲۲۰

خلف والده بشكل عليهى، وإذ أخذنا بعدد الأثار التى تحمل اسمه لاعتبرناه أعظم البناة المصريين، ولكنه فى حقيقة الأمر، غالبا ماكان يغتصب أعمال الآخرين، فلم يتردد قط فى العمل على كشط أسماء أسلافه من على سطوح العمائر القديمة ليضع أسماءه مكانها، وإذا اضفنا ما اغتصبه من آثار إلى ماشيده شخصيا، وهى مبان يصعب غض النظر عنها، لأدركنا لماذا خلف ذكرى حية فى تاريخ العالم، حتى تم أحياناً الخلط بينه وبين الشخصية الأسطورية التى عرفها الإغريق تحت اسم مسيزوستريس» Sésosiris ،

وتسيج رمسيس الثائني على منوال والده، فقياد حملة إلى السودان، ومن الراجح أيضًا (وإن لم يكن مؤكداً) أنه شن هجوما على الهند وأوروبيين القاطنين في الغرب، وفي عام ١٢٩٤ عبر إلى فلسطين وسار حتى بلغ مستوى مدينة بيبلوس، وتصدى الحيثيون للجيش المصرى بتحالف ضم عشرين شعباً. ولكن لم يتمكن المصريون في هذه المرة من أن يهزموا كلا من المتحالفين على انفراد، فاصطدموا بجيشهم الموحد، ورقعت الواقعة أمام مدينة قادش، إن معركة قادش معرفة معرفة جيدة بفضل أناشيد الثناء والمديح التي نظمت بأمر من الملك لتشيد بمسلكه الخاص، وأمكننا أن تستخلص منها خريطة بتحركات طلائم الجيش وقواته الضارية البخ.، وكانت المعركة في حقيقة الأمر، قاب قوسين من كأرثة لا سابق لها بالنسبة للجيش المصرى، وجلٌ ما استطاع رمسيس أن يفعله هو إعادة تجميع قواته، وريما أمكنه وقف تقدم ألعدو، ولم ينجح في الاستيلاء على قادش أو تدمير جيش الحيثيين الذي واصل حملته عليه، ويمجرد أن عاد إلى مصر، دبر ضده تمرداً جديداً في فلسطين، فعاد رمسيس أدراجة إلى فلسطين والرض السلام على كنعان (فلسطين) كما تجح في انتزاع مدينة ترنيب من الميثيين (راجم الخريطة رقم ٢).

عند هذا الحد، تطورت الأوضاع الخارجية فجأة، فوقد من أسيا لص ثالث، مستغلاً الصراع المسرى الحيثي، كان ملك أشور

قد استولى على الجائب الأكبر من دولة الميتاني القديمة، ثم استقر عند نهر الفرات، حيث أخذ يهدد في أن واحد الممتلكات المصرية وإمبراطورية الحيثيين، وإذ أدرك المصريون والحيثييون الخطر، اتفقوا على الفور،، وأبرموا معادهدة عام ١٧٧٨ ق.م، فكانت حلفاً حقيقياً للتعاون المتبادل. وتعهد الطرفان بموجبه أن يضعا حداً للحروب الدائرة بينهما وأن يساند كل منهما الآخر عند وقوع هجوم من جانب قوة ثالثة. وأخيراً اتفقا على تسليم اللاجئين السياسيين التابعين للطرف الآخر، وليدعم الوحدة الجديدة، تزوج مسيس الثاني من أميرة حيثية. وعلى كل حال، فسرعان، مافقدت المعادة أهميتها بالنسبة لمصر، بالنظر إلى زحف الموجة الثانية من الغرد الهند وأوروبي في آسيا الصغري، فكان الحيثيون الثانية من الغرد الهند وأوروبي في آسيا الصغري، فكان الحيثيون منها، لقد استطاعوا وقف الزحف إلى حين، ولكن سرعان ماجرى اكتساحهم ليصبح من المستحيل عليهم تقديم أي عون لمسر.

مرتبقاح ۱۲۲۵ - ۱۲۲۴

يمثل عهد مرتبتاح بداية انحطاط مصد، لقد كان حكم رمسيس الثاني طويلا بشكل منحوظ، وعندما وصل مرتبتاح - ابنه الثلاثون - إلى سدة الحكم كان هو شخصياً في سن متقدمة إلى حدّ ما ، وظل في استطاعته أن يحافظ على هيبة مصد وكانتها ، ولكن سوف يتقوض كل شيّ من بعده ، وكانت حملة لبييا ، دون جدال ، من أبرز أحداث عهده ، فقد لاحظنا توغل الهند وأوروبين في ليبيا في عهد سيتي الأول ، فبعد أن تمكن زعيم قبلي

من توحيد العشائر الآرية التي حطت رحالها على أرضها، نجح في إخضاع الليبيين سكان البلاد الأصليين، ثم اتجه صوب مصر، توغل الجيش الهند وأوروبي في وادى النيل شمال غرب منف، وكان على مرنيتاح أن يخوض القتال على أرض مصرية وانتصر، ووأى الميش الليبي أدباره في حالة من الفوضى، وانزاح الخطر الليبي مؤقتاً. وحسيما جاء في وثيقة مصرية، يظهر فيها إسم إسرائيل لأول مرة في التاريخ، يبدو أن مرنيتاح قاد حملة إلى أسيا، غير أنه لم تصلنا أية معلومات عن هذه الحملة التي لازالت محلّ جدال.

ريما كنا على قدر من التعسف عندما اعتبرنا أن نهاية عهد مرئبتاح أى منتصف الأسرة التاسعة عشرة، هي نهاية لتاريخ مصر الكالاسيكية، وفي الحقيقة، فبعد هذا الفرعون، سوف يتوارى بالتدريج كل ماصاغ عظمة مصر التي لا نظير لها، وبداية فقد فقدت مصر نهائياً ممتلكاتها الأسيوية، ثم إن الوحدة، التي كانت العماد الوحيد لإمبراطورية مصر الإفريقية، سوف تزول على نحو ماحدث خلال عصرى الانتقال الأول والثاني، وسوف تظهر في الوجهين القبلي والبحرى ممالك تعادى بعضها البعض، ولكن في الوجهين القبلي والبحرى ممالك تعادى بعضها البعض، ولكن وسوف تتحول مصر من فوضي الى فوضي لتسقط فريسة وسوف تتحول مصر من فوضي الي فوضي لتسقط فريسة الإمبراطوريات المجاورة، أشور في البداية، ثم القرس، فالإغريق المناد.

الفصل الثالث عصر الانحطـــاط

أدى ومنول الهند وأوروبيين بأعداد غفيرة إلى ليبيأ وقي البحر المتوسط وفي أسياء عند نهاية الألف الثاني (حوالي ٢٠٠٠ ق.م)، إلى زعزعة توازن الدول، إن مصر من ناحية، ومابين النهرين من ناحية أخرى، كانتا - حتى وصول الهندوأوروبيين -- تشكلان مركزين حضاريين شامخين ومستقلين في الواقع، ويبعد كل منهما عن الأخربما يكفي لتجنب أية احتكاكات، ولكن منذ بداية الألف الثاني، كانت مرجه الهجرات الأولى قد غيرت بالفعل من هذا الوضيع الذي ظل قائما منذ الألف الخامس. إن تأسيس امبراطوريتين كبيرتين جديدتين في الشرق الأدني: في الأناضول (الميشين) وفي أعالى الفرات (الأشوريين) قد أجبرتا مصر على الاحتماء وراء تحصينات أحدورية امتدت إلى فلسطين وسوريا، ولكن جاء اليوم الذي اتضح فيه أن حتى امتلاك هذه التحصينات أمسيح غير كاف لحماية وادى النيل. ولأول مرة في تاريخها، يقم هجوم بحرى على مصد وعلى السواحل المصرية بالتحديد، ومما لاشك فيه أن مصر قد نجمت في تحطيم الأسطول المهاجم، فحصلت بذلك على مهلة لعدة سنوات تلتقط خلالها الأنفاس، بيد أنه لم يعد في إمكانها أن تغيرُ التوزيع الجديد للقوى، فبعد أن

ظل البحر المتوسط حتى الأن منطقة لا حياة فيهاء اضحى بدوره محور عبور هجرات وتحول إلى مركز حضاري لتنتهي عزلة مصر النسبية، لقد كان في وسع مصر حتى هذه اللحظة أن تنطوي على ذاتها لتخلل إفريقية ليس إلاً، ولكن منذ الآن، ويمرور السنين، تناقصت قدرتها على ذلك. فمن خلال الدلتاء أصيحت مصر متوسطية، شاءت ذلك أم أبت. كان من المنتظر نتيجة تغيير واقع الحال في مصر أن تتطور البلاد داخلياً، فنشهد تحرك مركز ثقل مصير السياسي كنتيجة لتحرك الحضارات نحق البحر المتوسط، ولكن كانت استطالة مصر أكثر مما ينبغي، بحيث لا تستطيع أن تحرك مركزها الإداري دون أن تعرض نفسها للخطير. وإنطلاقاً مما سبق وأكدناه، فإن إقامة عاصمة البلاد في الدلتا، يكاد يقابله بالضرورة حدوث تمرد في الجنوب، ولا ريب أن العناصر التي قادت مصدر إلى الانحطاط، قد تمخضت عن حتمية اختيار أحد هذين الطين، فحتى يمكن لمصر أن تراقب عالم المتوسط وإن تحتمى منه، كان عليها أن تقيم مركز البلاد في الوجه البحري وتنظل تتحكم في جميع مواردها البشرية، ولكن إذا انتقل المركز الإداري إلى الشمال أكثر مما ينبغي، استقل الوجه القبلي والنوبة إلى هذا الحد أو ذاك ليفقد النظام الملكي الفرعوتي جل قوته، هذا السبب المتأميل المقوض للتوازن، والذي يصبعب الإفلات منه، سيزداد خطورة بفعل حدثين ثانويين، كانت طيبة ومعها كهنة أمون

يتمتعون بمكانه بلغت حداً من السموفي نظر المصريين حتى بقيت بالضرورة مركز جذب بالنسبة للشمال، الأمر الذي أعاق إنشاء عاصمة إدارية في الدلتا، وأخيراً، فإن اقتقار مصر إلى زعماء مرموقين، يكون في وسمهم بفضل مالهم من مكانة شخصية ومهارة أن يحافظوا، ولو في الظاهر، على وحدة هذا الجسد الكبير الذي فقد محور توازنه، قد عجلٌ من انهيار مصر، لقد أصبحت بالاد الزعماء الذين حملوا اسم امتمحات وسنوسرت مجرد لقمة سبأتُغنَّة لكيل طامع، ليقد وجدت منصس تنفسها حسب موقعها الجغرافي عند ملتقي الطرق، فقدر لها أن تهاجم على الدوام، وأكن لم تتضبح محاذير هذا الموقع إلا بعد إعمار عالم المتوسط وتحضره ليصبح مركز إشعاع، لقد تحرك مركز حضارات العالم القديم في اتجاه الشمال وتبين أن هذا التحرك كان نكبة على مصدر، فلأول مرة في التاريخ نشاهد مثل هذا التحرك ولن يكون الأخير. وإذا اكتفينا بالظواهر التاريخية التي مرت بالمضارة المغربية فنذكر منها كبرى فتوحات القرون المبلادية الأولى واكتشاف العالم الجديد وإعماره، وجميعها نماذج لهذه التحركات التي كانت تقوض في كل مرة التوازن القديم للحضارات، فتقود يعضبها إلى الاتحطاط وتدفع غيرها إلى مركز الصدارة،

 ١ -- نهاية الأسرة التاسعة عشرة (١٢٢٤ -- ١٢٠٠ ق.م)

بعد نجاح مرنبتاح في احتواء الليبيين الهند وأوروبيين في الغرب، كان من المهم بمكان أن تنهج مصر سياسة عسكرية نشطة، فالعدولم يكن قد أبيد بالفعل عن بكرته، بل تفرق فحسب، والنسف كان مرئيتاج الهر أسرته المظماء، كان خليفته «أهون مس» مغتصباً للعرش، ومنذ عهده عمّت القلاقل الداخلية، وخُلع «أمون مس» عن العرش من جانب المدعو «مرنهتاج سي هتاج» الذي أطاح به «سيتي» الثاني، بصفته الملك الشرعي دون شك واستطاع ابن «سيتي» الثاني وهو «رمسيس سي يتاج» أن يخلف أباه، ولكننا لا نعرف شيئا عن حكمه، وظلت القوضي تتفاقم بعد وفاته، وأصبح رؤساء المقاطعات مستقلين من الناحية العملية، بل لم يكن هناك على ماييدو ملك لتصريف أمور الحكومة المركزية، بل لم يكن هناك على ماييدو ملك لتصريف أمور الحكومة المركزية، بل لم يكن هناك على ماييدو ملك لتصريف أمور الحكومة المركزية، ألأمر الذي يكشف عن مدى اضبطراب أحوال امبراطورية الفراعنة، وفي الخارج، شرع الهندوأوروبيون يزحفون صوب الفرفي والغرب، بينما استغل أقرائهم في ليبيا انتشار الفوضى في مصر ايعيدوا تنظيم صفونهم،

٢ -- الأسرة العشرين (١٢٠٠ -- ١٠٨٥ ق ، م)

تندد النصوص المصرية بزندقة وطغيان الغاصب السورى، اقد نجح المصرى دست ثخته في خلع ديارسو، عن العرش، سواء بالاعتماد على المقاومة الشعبية أو بتشجيع من كهنة آمون، وأسس الأسرة العشرين، وبالرغم مما أصاب البلاد من وهن كنتيجة لطول عصد الغوضى التى عاشتها مصد، فقد نجح في أن يكون له

بعض الهيمنة، ولكن علينا ألا نخدع أنفسنا كثيراً. إنها الصحوة الأغيرة ليس إلا، فالانحطاط أت لا محالة، كان حكم «ست نخت» (١٢٠٠ -- ١١٨٠) مؤسس الأسرة قصيراً جداً، وكان – وهو على قيد الحياة -- قد أشرك ابنه في الحكم، ومن ثم استطاع هذا الإبن وهو رمسيس الثالث - أن يخلف أباء دون مشاكل، ليصبح عهده آخر أعظم عهود ممس، وعلى الصعيد الداخلي يبدو أن رمسيس الثالث قد أمسلح الإدارة بل ومجمل نظام مصس الاجتماعي، واللاسف، فإننا مازلنا نعرف هذا الإصلاح معرفة سيئة، وكم كنا نود أن تتوفر لنا المعلومات حول توزيع السكان على مشتلف الطبقات المتراتبة التي نشأت في ذلك المهد كما تكشف عنه بعض البرديات، ومن ناحية أخرى، فإذا حكمنا على ذلك استنادأ إلى نموذج عصس الاميراطورية الرومانية المتأهر (٣٥٥ -- ٢٧١م) الذي شبهد إصانصات مماثلة، فإن يلورة هذه الوظائف الاجتماعية دليل انحطاط أكثر منها إعادة تنظيم مثمرة. ومهما يكن فإن رمسيس الثالث قد استطاع على الأقل أن يدعم النظم العسكرية وهوما كانت مصر أحوج ماتكون إليه. وبالفعل فقد أختفى الحيثيون بعد أن أبادتهم «شموب البحر» أي القبائل الهند وأوروبية الوافدة من أوروبا والتي وصبلت في هذا الوقت عند حدود فلسطين وأخذت تنحف على مصدر وفي ليبياء أخذ هندوأوروبيو الغرب يهددون من جديد وادى النيل بعد أن أعادوا

تنظيم صغوفهم. شن رمسيس الثالث حملته الأولى ونجح في وقف القبائل الآرية الزاحفة من ليبيا بعد أن استطاعت التوغل داخل مصر ذاتها، ومن هنا أخذت تهدد مدينة منف، وبعد أن حقق هذا النجاح الأول أو ربما في الوقت ذاته (إذ مازلنا لا نلم جيداً بالتتابع الزمني لهذه الحملات) اضطر فرعون أن يتصدى لموجه أخرى من الفزوات الهندوأوروبية القادمة في هذه المرة من الشرق والشمال والتي أخذت تهدد مصدر براً وبصراً في أن واحد، ومعلوماتنا عن الحملة البرية شحيحة ويبدو أن الجيش المصرى قد توصل إلى احتواء الهندوأوروبيين عند الحدود الفلسطينية السورية، أي على مسافة كافية بعيداً عن مصر. أما بحراً فتسرد علينا نقوش معبد مدينة هابو (بطيبة) وقائع انتصار مصر الذي كان حاسماً على مايظن، وعلى كل حال فقد تم تدمير اسطول كان حاسماً على مايظن، وعلى كل حال فقد تم تدمير اسطول رجعة،

إن أول انتصار حققه رمسيس الثالث على الهندوأوروبيين في ليبيا، كان على مايبدو غير كاف قما إن مرّت ست سنوات على الغزوة الأولى، حتى التأم شمل القبائل من جديد تحت إمرة زعيم أوحد يدعى «كاير» الذي شرع يخضع باقى السكان الليبيين المحليين، وبغضك فرض الهندوأوروبيون يدهم الطولى على ليبيا، وبعد أن أكمل هذه العملية التمهيدية، دفع «كاير» بقبائلة لتغزو

مصر، فاصطدت هذه المرة أيضاً مع المحيش المصرى عند مشارف منف، وفي هذه المرة انتصرت مصر تصراً مبيناً: قوقع الملك «كاير» وابنه في الأسر، وبعد أن تمكنت الفوضى من القبائل الهندوأوروبية، لن تعود أبداً إلى غزو مصر بالقوة، ولكن لم تنفك مصر تشدهم إليها، ومنذ الآن، فبدلاً من أن تدخل وادى النيل كعزاة قسوف تتسلل إليه بالطرق السلمية، وفي الغالب كمرتزقة، بناء على طلب من زعماء الأسرات المحلية في الأقاليم أو الفراعنة لسد النقص في الرجال، وهكذا سوف ينجمون في تكوين دولة داخل الدولة ويتوملون إلى الاستيلاء على السلطة الملكية، ومن ذرية هؤلاء المحاربين المرتزقة سوف يبرز واحد منهم ذات يوم ليتربع على عرش مصر،

وبعد أن أنزل رمسيس الثالث الهزيمة «بشعوب البحر» حاول أن يعود إلى سياسة مصر التقليدية في آسيا بل إنه تجح في التوغل داخل سوريا، واكنه، الأمر كان مجرد إغارة لم يكتب لها النجاح، أما الساحل الفلسطيني ذاته الذي تحكمت فيه القوات المصرية لأماد طويلة، فقد احتله الآن البلستيون وهم قبيلة هندوأوروبية، وأصبحت مصر لا تلعب قط أي دور في المشرق وان تلعبه أبداً.

وما إن توفى رمسيس الثالث - بل وربما وهو على قيد الحياة، أطبقت المفوضى على مصدر من جديد، فقد حيكت مؤامرة ضد الملك العجوز، ومن الراجح أن المتآمرين قد حققوا على الأقل جانباً من أهدافهم. وبالفعل فقد تولى خليفة رمسيس الثالث تقديمهم للمحاكمة وهو مايعتى أن هذا الأخير كان قد وافته المنية. ولا تعرف أن كان قد اغتيل ثم تولى ابنه ردع المؤامرة قبل أن يجد المتأمرون متسعاً من الوقت للاستيلاء على السلطة، أم أنه مات ميتة طبيعية في نفس اللحظة التي تم فيها اكتشاف المؤامرة، ومن ثم تولى ابنه معاقبة المذنبين بعد أن ألقى القبض عليهم وهو على قيد الحياة، ومهما يكن من أمر، فقد تدهورت الأوضاع في أتجاه مزيد من الانحطاط. ولا نعرف الكثير عن الملوك الثمانية الذين أعقبوا رمسيس الثالث (لقبوا جميعهم باسم رمسيس، وهم رمسيس الرابع والشامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والمادي عشر)، اللهم إلا أن عهودهم قد عانت من القلاقل الداخلية والمجاعات. ومن علامات الساعة، أن دفئات الملوك ذاتها لم تسلم من عبث العابثين، جاء اللصوص ينهبون التوابيت الملكية واستولوا على الطيء بينما وقف الملوك الجالسون على عرش البلاد عاجزين لا يملكون من وسيلة لصماية رفات أسلافهم سوى أن ينقلوها من مقابرهم لدفنها سراً في خبايا جماعية، وإو تذكرنا مكانة الملك في أعين المصريين في ظل الدولة القديمة والدولة الوسطى بل وفي ظل النولة الحديثة، عندما كان إلها بقدر ماكان ملكاً، الأدركنا مقدار مافقدته الملكية من هيبة، وبناء عليه من قوة. ويظهر ضبعف الملكية في حركات التمرد في مصدر الوسطي على

وجه الخصوص، وتنظرا لوجود الليبيين في هذه النطقة بأعداد غفيرة فمن غير المستعبد أنهم ظلوا بمنأى عنها، كما يظهر أخيراً هي تزايد قوة كهنة آمون في طيبة. إن مانعرفه عن دور هؤلاء ألكهنة هو من باب التخمين أكثر منه معرفة يقينية، وفي محورة مياغته من صحوات العزيمة خلم رمسيس الحادي عشر كبير كهنة آمون وأحجم لفترة من الوقت عن أن يعين من يخلفه، ولكن سرعان ماعين رمسيس الجادي عشر «حريحور» كبيراً لكهنة أمون، سواء أدرك أنه لا يستطيع أن يقود الحكم بمقرده أو نتيجة لما مارسه يقية الكهنة من ضغوط قوية عليه أن أخيراً لانه آراد، بدافع من قلة المنكة، أن يمابي أحد المقربين إليه. ومن الراجع أن «هريمور» كان من العسكريين، فجاء هذا التعيين غير الموفق إيداناً بنهاية الأسرة، إذ نلاحظ أن «حريص» قد انتحل شيئاً فشيئاً مختلف الصفات اللكية. ومما لا ريب فيه، أنه قد بدي في بداية الأمر بمظهر للوظف للخلص، ويقضل إنعامات اللك عليه، ويعد أن شغل منصب كبير كهنة آمون، أضاف إلى هذا المنصب الرفيع لقب تأثيب لللك في كوش الذي سناعده على مدّ تقوده إلى السودان، ثم حمل لقب وزير الجنوب الذي أهله لحكم الوجه القبلي على وجه التحديد، وإن لم يستطع حريمور أن يصبح سيد مصر قاطبة، إلا أنه غدا سيد جنوب البلاد على الأقل، ومن المفترض على الأرجح أنه اعتمد في ذلك على مساندة كهنته، واختفى رمسيس الحادي

عشر دون أن تعرف تاريخ وفاته، وكانت مصر عند وفاته قد عادت وانقسمت عملياً إلى شطرين، ففى الشمال كان «سمندس» وزير الشمال المطلق السلطات، ومن الراجح أنه اكتسب حقوقاً على عرش البلاد عن طريق زوجته، أما في الجنوب، فنرى ان «حريحور» وهو الوزير السابق للجنوب، كان قد انتحل الألقاب الملكية. وعلى كل حال، فإن السلطتان القائمتان في الشمال والجنوب لم تناصبا بعضهما البعض العداء، بل يبو أن حريحور قد اعترف بتبعيته لسمندس ولو نظرياً على كل حال، لأنه باعتباره ملك الوجه القبلي، وبالأخص بصفته السيد الحقيقي لكهنة أمون، ملك الوجه القبلي، وبالأخص بصفته السيد الحقيقي لكهنة أمون، المللق لمنطقة طيبة وجنوب البلاد.

٣ - الأسرة الحادية والعشرون (١٠٠ - ١٠٠ ق ، م) حينما تسلم «حريحور» السلطة في الجنوب، كان انذاك طاعناً في السن، ولى كان في نيته أن يضم الشمال إلى ملكه فإنه لم يجد أمامه متسعاً من الوقت لتنفيذ مشاريعه. وعند وفاته، كانت مصر موزعة بين سلطة فعلية في الوجه القلبي، على رأسها «بي عنهي» بن حريحور، وبين ملك في الشمال، هو بالا ريب، الملك الشرعي، ويدعي «سمندس» وتضافرت الظروف ليصبح «سمندس» مؤسس الأسرة المادية والعشرين التي اتخذت من تائيس (صان الحجر سحاليا) في شعرق الدلتا، عاصمة لها. وفي حقيقة الأمر، حاليا) في شعرق الدلتا، عاصمة لها. وفي حقيقة الأمر،

فقد توفي سمندس – شائنه شان حريحور – دون أن يغير شبئاً في الرضيع القائم في مصير، وأورث سلطتة لاينه «يستوسينس» الأول الذي لم يرزق أبناء من الذكور. أما ابنته «ماعت كارع» التي تملك حق وراثة المرش، حسب المادات المسرية، فقد زوجها من أبن «يي عنضي» الذي كان لايزال كبير كهنة أمون، ويستموذ بالتالي على السلطة في الوجه القبلي، ومن ثمّ ورث ابن بي عنضي السلطة في الجنوب عن طريق أبيه والسلطة الملكية في الشمال عن طريق رُوجِته، ولما تسلم السلطة تنقُّب باسم يبي نجم» الأول، وبدأ وكأن وحدة مصر قد صارت من جديد أمراً معققاً، بيد أن عوامل التجزئة كانت أقوى بكثير من أن تقاوم بمثل هذه السهولة، حقاً لقد حاول «يي نجم» الأول، وإظل يقيم بمقره في الشمال، أن يحافظ على سيطرته على الجنوب فأسند إلى أبنائه منصب كبير كهنة أمون. ولكن يبدو أن التمرد قد انفجر في طيبة في أعقاب وفاة ابنه الأكبر، إذ عين «يي نجم» في المأل أبنه الثاني على رأس كهنة طيبة، وكان يُدعى «من خير رع»، واستولى هذا الأخير على السلطة لحسابه الخاص، فقضى بذلك قضاءً ميرماً على كل مضططات والده, وسرعان ما اتخذ «من خير رع» كبير كهنة أمون لنفسه لقب ملك، وهكذا ورغم كل مابذله «يي نهم» من جهد، انقسمت مصدر من جديد إلى شطرين على حساب البلاد بأسرها، نظرا لأن كبير كهنة أمون أصبح يفتقر إلى القوة الماسة التي كانت تحت تصرفه في ظل الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فقد

تضاطت ثروتهم لانحسار موارد الجزية الأجنبية ائتى كانت تغذى مخازنهم في الماضى من جراء الحروب المتواصلة التي خاضها فراعنة مصر العظام، فاضطروا إلى الإعتماد على ما تغلّه أراضى المعابد من دخل، ومن الراجح أن هذا الدخل قد استخدم في جانبه الأعظم لسد احتياجات الكهنة أنفسهم.

وبعد وفاة «بي نجم» ظلت الأسرة منقسمة من الناحية الفعلية، غفى تانيس وفي الشمال، كان في سدة الحكم «أمون إم أوره» أولاً، ثم خُنْفَارُه «سي أمون» و «يسوسينس» الثاني، في حين خلف أبناء «من خير رع» أباهم في طبية عند وفاته وحملوا نفس الأسماء التي حملها الملوك الذين حكموا في الشمال، فتعرف في الجنوب من يُدعى بسوسينس» الذي كان حكمه قصيراً جداً، وآخر يدعى بيى تجمه وكان معامدراً لـ «سي آمون»، وما تعرفه عن هذه القترة قليل جداً، وكم كنا نود أن نوضيح بصنفة خامية العلاقات التي كانت تربط الجنوب بالشمال، ولاشك أن الاكتشافات التي تمت على يدى ببير مونتيه P.Montet عام ١٩٤٠ ق ، م فسي تأنيس، سوف تساعد على إلقاء الكثير من الضوء على هذه المشاكل، وتسيطر على نهاية الأسرة المادية والعشرين حقيقة أنقسام مصبر الكامن في الراقع كإمكانية لا يمكن ملاحظتها على المتعيد الرسمي، إنه مجرد واقع حال أفرزته الظروف. إن ملوك ثانيس هم حكام مصر الشرعيون، وخلفاء «من خير رع» في طيبة

- على عكس مافعل أبوهم - أن يحملوا الألقاب الملكية، ولم تكن المكانيته انقسام الشمال والجنوب الكامنة في الواقع هي الصدع الرحيد في البنيان السياسي، قفى هيراكليوپوليس (إهناسيا - حاليا) في مصر الوسطى، استولت عائلة ذات أصول ليبية على السلطة المحلية، وإزدادت أهميتها بالتدريج، وسوف تقوم هذه العائلة بتأسيس الأسرة الثانية والعشرين بعد أن تمكنت من إزاحة ملوك تانيس,

ع - الأسرة الثانية والعشرون - (٥٠ - ٧٣٠ ق . م)

تتحدر هذه الأسرة من أصول ليبية وتشكل ما يشبه ديكتاتورية عسكرية، ققد بات المرتزقة الليبيون – الماشواش – يشكلون وحدهم الجيش، بعد أن تقلص فيه باطراد المنصر المصري المحض وتمتع زعماؤهم بسلطات ازداد قدرها كلما ازدادت البلاد ضعفاً من جراء الانقسمات، وصاروا يمثلون القوى المسلحة فاستغلوا الوضع للاستيلاء على السلطة العليا. كان من المنتظر في ظل حكومتهم أن تعود إلى البلاد وحدتها السياسية، كما هو الحال بوجه عام عندما تستولى أقلية عسكرية على السلطة، ولكن لم يحدث شئ من هذا القبيل، فكانت الأسرة الثانية والعشرين لم يحدث شئ من هذا القبيل، فكانت الأسرة الثانية والعشرين من هذا القبيل، فكانت الأسرة الثانية والعشرين قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على من قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على من قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على من قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على من قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على من

القرون، وفقدوا وحدة سماتهم العرقية التي كانت تشكل جانباً من قوتهم يتكرار زواجهم من المصريات. ثم بالنظر إلى أنهم كانوا أقل تطوراً من المصريين، فقد تبنوا حضارة سادتهم وتخلوا عن تقاليدهم الخاصة، التي كان في إمكانها أن تميزهم عن المصريين وتعزلهم عنهم، إذا صبح القول، فتمكنهم من السيطرة عليهم بسهولة، إنهم مصريون من أصل أجنبي، وليسوا أجانب، وأخيراً كانت جنور اختلال التوازن بين الجنوب والشمال تمتد إلى أعماق سحيقة بحيث لا تستطيع سلطة مغتصبة، كما هو الحال بالنسبة للأسرة الثانية والعشرين — أن تعالج الأمر.

إن عائلة آل «شاشائق» التي ينتسب إليها ملوك هذه الأسرة الملكية هم خير مثال على عملية الدمج التي جرت اليبيين في مصر، لقد استقروا في هيراكليوبوليس (إهناسيا - حاليا) - وهي النموذج الأمثل لمقاطعة التموم الليبية، ويبدو أن آل «شاشائق» والإسم غير مصري على كل حال - كانوا ينحدرون، على مايبدو من أصول ليبية صرفة. ومن الملاحظ أنهم اصبحوا مصريين حتى قبل أن يستولوا على السلطة في هيراكليوبوليس، وبعد أن كانوا في الماضي زعماء عسكريين فحسب، أصبحوا كهنة الإله المحلي هي الماضي زعماء عسكريين فحسب، أصبحوا كهنة الإله المحلي شائنهم شأن المصريين. وسرعان ما أشرق إشعاع العائلة وضرب شي الأفاق حتى وصل إلى بوباستس (تل بسطا - حالياً) في شرق الدلتا، وعند وفاة «بوسينس» الثاني، حمل «شاشهاشة» الأول

الألقاب الملكية وليصبغ الشرعية على أسرته زوج ابنة «أوسركون» من ابنة «بوسينس»,

ومن الراجح من ناحية أخرى أن الدكتاتورية العسكرية قد أثارت القلاقل في البلاد، ومع ذلك فإننا لم نتوصل إلى معرفة إلى أي حدّ امتد التمرد الذي اتخذ على ماييدو من منطقة طيبة على وجه التحديد نقطة ارتكاز ومن غير المستبعد انه قد حدث خلال هذه الفترة. أن اختار جانب من الكهنة أن ينفى نفسه إلى السودان نفياً طوعياً، وإن كنّا نفتقر إلى دليل قاطع.

كان لا مغر من أن يشد الشمال الماوك الليبيين شداً، بعد إن أصبح الآن مركز شقل مصر الصقيقى، فهجروا منطقة هيراكليوبوليس، ليستقروا على مايبدو في الدلتا. ومن هنا شن شاشانق الأول حملة على فلسطين واستولى على أورشليم وسلب معبدها ونهبه. ومن ثم أعاد إلى مصر بعض هيبتها في أسياه واكنها كانت حملة تفنقر إلى نتائج حقيقية. وبالطبع لم يصل الأمر إلى غزو حقيقي لفلسطين، وكانت النتيجة العملية الوحيدة لهذه الحملة هي إمداد المعابد المصرية بكم هائل من المغانم.

إن خلافة شاشائق الأول على العرش هي من المسائل المعقدة جداً بسبب افتقارنا إلى الوثائق. ولم يغير استيلاء الليبيين على السلطة من انقسام مصر إلى شمال وجنوب كإمكانية كامنة في الواقع، وإذ استعاد شاشائق الأول سياسة أسلافة فقد حاول أن

يصادر تفوذ كهنة آمون لما فيه مصلحته فعين على رأسهم أحد أبنائه، ومن ناحية أخرى فسوف بسعي خلقاؤه إلى تقليده، ولكن على نحو ماحدث لجهود ملوك الأسرة الحادية والعشرين فقد ياءت جهودهم هم أيضنا بالغشال، وأخذ الصبية الذين نصبوهم على رأس كهنة طبيبة يسعون دوماً إلى تأسيس أسرات ملكية في الجنوب موازية للغرع الرئيسي القائم في الشمال، ولوضع حدُّ لهذا الاتجاء سعى القراعنة إلى الحد من نقوذ كبار كهنة أمون غاستحدثوا لقباً بينياً جديداً هو لقب «زيجة الإله» أو «عايدة الإله آمون». وعابدة الإله هذه كانت دوماً من أميرات البيت المالك، ولكن كانت النتيجة أن أستولت «عابدات الإله» على سلطة كيار الكهنة بون أن يصبحن أكثر إخلاصاً منهم تجاه السلطة المركزية، وهكذا غللت مصير متقسمة إلى شيطرين، وتالحظ قرب تهاية الأسرة الثانية والعشرين، أن طيبة قد جاهرت مرتين بإعلان تمردها ضد ملوك الشمال، الأمر الذي يكشف عن نزعة استقلالية صناعدة في أوساط طبية في علاقتها مع النظام الملكي،

٥ -- الأسرات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ (١١٨ - ١٥٦ ق ، م)

قى عهد آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين: عشاشائق الثالث، و عهامي، و عشاشائق، الرابع، انتشرت القوضى بون توقف، ونزعت مصر إلى مزيد من المتجزئة، لاسيما في الدلتا، فقد تأسست الأسرة الثالثة والعشرون قبل أن تذوى الأسرة الثالثة

والعشرون، وتزلمن جزئياً وجود الأسرتين، ومن دراسة الأسماء التي اختارها فراعتة الأسرة الثالثة والعشرين: «يدي ماست» و «شاشائق» الشامس و «تكلوي» الثالث، يبدو من الراجح انها كانت ترتبط بصلة القرابة مع الأسرة الثانية والعشرين، وكانت بوياستس عاميمة الأسرة الجديدة حيث استقرت عائلة أل شأشائق قبل أن تتسلم الأسرة الثانية والمشرون السلطة بفترة طويلة، وهكذا ازدادت مصر انقساماً على انقسام، فإلى جانب أنشطارها إلى شمال وجنوب، تجزأت إلى شرق وغرب في الدلتا. وياليتها كانت نهاية التجزئة. فإلى جانب الأسرتين المتوازيتين، ظهر على ماييدو العديد من زعماء الأسرات المحلية في الشمال، إلى أن قامت الأسرة الرابعة والعشرون، وبالرغم من أن جميع هؤلاء الملوك لم ينامنيوا دائماً بعضبهم البعض العداء، فقد كانت تجزئة السلطة محفوفة بالمضاطر على مصبر التي صبارت عاجزة عن حشد جيش قوى، وفي نفس الوقت لم تستطع تأسين الأشغال اللازمة للاقتصاد العام التي لا غنى عنها من أجل ازدهار البلاد، وحوالي عام ٧٣٠ ق ، م كان الموقف قد بلغ قدراً كبيراً من التعقيد والتشويش، ففي الدلتا كان يتقاسم السلطة فراعنة الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، من جانب، واقتسمها من جانب آخر، زعماء الأسرات الذين اغتصبوا السلطة المطية وأغلبهم من العسكريين الليبيين. أما في مصر الوسطى فمن الاستحالة بمكان أن نميز بين مايخضع لقراعتة الأسرة الثانية

والعشرين وما يتبع فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين، دون أن تحدث بينهم، مع ذلك، أعمال عنوانية. وفي الوجه القبلي، فإن كبير الكهنة وعابدة الإله أمون المرتبطان بصلة القرابة بالفراعنة للتربعين على عرش الشمال، قد أمسكا بزمام السلطة في طيبة وحافظا على استقلالهما تجاه الحكومة المركزية. وفي السودان، يرجح البعض أن جماعات كهنة آمون التي هاجرت، على مايظن، في مستهل الأسرة الثانية والعشرين قد شكلت قيما بينها إدارة مستقلة، كان مركزها العضري في «نباتا». ولكن الأقرب إلى الصواب مع ذلك أن العواهل الذين تزعموا هذه الملكة كانوا ببساطة سودانيين وإن شرعت في الظهور حركة مزدوجة جنحت بيساطة سودانيين وإن شرعت في الظهور حركة مزدوجة جنحت نحو المركزية.

حوالى عام ١٥١ تسلم «بي عنفي» السلطة في نياتا، في السودان، ولا يشير اسمه بالضرورة إلى أصول مصرية، بلومن المعتقد في الوقت الحاضر، أنه يتعين أن يُقرأ «بييي». لما كانت اعداد المصريين في النوبة محدودة على الدوام، فقد اندمجو مع السودانيين، فلما تسلم «بييي» مقاليد الحكم، كان حاكماً على شعب سوداني قع، ومن أسماء أجداده نستخلص أنه لا يدين، على مايبو، بشئ لمصر، وإذلك غالباً ما يطلق على الأسرة التي أسسها الأسرة «الكوشية» (الأثيوبية) "، وسعى «بييي – بي عنفي» إلى الأسرة «الكوشية» (الأثيوبية) "، وسعى «بييي – بي عنفي» إلى

^{*} اطلق المسريون على السودان إسم دكرش، في حين أطلق عليه الإشريق دائيويياه،

Posener. Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne, 7108 [ائتنجم]

البالاد، شرع ««تق تخص» – أمير سايس (صال الحجر – حاليا)
يعيد توحيد البالاد من حوله، ويبدو أنه مال إلى أسلوب الإقناع بدلاً
من الغزو العنيف، وقرض على عواهل الأسرات المحلية أن يقروا
بسيادته، فتبتهم في المقابل في سلطاتهم بصفتهم من أتباعه،
وبعد أن وحد «ثف ثخت» مصر السفلي على هذا النحو، توغل في
مصر الوسطى ليصطدم فيها بديييي» الزاحف من الجنوب،

والرواية المحيدة لصراع الشمال والجنوب وردتنا من خلال وثيقة واحدة تعرف اصطلاحاً بلوحة «بي عنخي» التي تعرض رؤية «جنوبية» للأحداث،

هذا المصدر على قدر كبير من التحير، ويدّعي يبي - عنضى متفاخراً بأنه هزم «تف نضت» هزيمة منكرة وأنه احتل مصر بأسرها حتى تخوم الدلتا البحرية. وفي الواقع، فإذا صبح أنه طرد «تف نخت» وأتباعة من مصر الوسطى وأنه استعاد منف، فمن المشكوك فيه في المقابل أن يكون قد زحف إلى أبعد من ذلك، وفي الواقع، فحالما فرغ «بييي - بي عنضى» من انتصاره المزعوم، لم يكتف بالعودة إلى عاصمته نياتا فحسب، وهو مايبدو غريبا في حد ذاته، بل إننا تحتفظ بالإضافة إلى ذلك بدليل يثبت أن «تف خدت» كان لايزال محتفظ بإلاضافة إلى ذلك بدليل يثبت أن «تف مندوات على الغزو الكوشي المزعوم، ومهما يكن من أمر، يعتبر مندوات على الغزو الكوشي المزعوم، ومهما يكن من أمر، يعتبر «تف مندوات على الغزو الكوشي المزعوم، ومهما يكن من أمر، يعتبر

ملكين: «تف تخت» و «باك إن رتف»، («بكوريس» عند الإغريق)، وبسطت هذه الأسرة سيادتها على الشمال، بينما كان «بييي -- بي عندي» يحكم الجنوب مع الأسرة الخامسة والعشرين، وربما امتد سلطانه حتى منف، فالأسرتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون الخامسة والعشرون الباد،

في الشمال، خلف «باك إن رنف» والده «تف نخت»، وكان يعد على ماييدو مشرعاً بارزاً واكتنا لا نعرف عنه إلا النذر القليل، وأنه كان وراء تمرد في فلسطين ضد الأشوريين، وأنه دعم هذا التمرد بمفرزة من القوات المصرية التي هزمها على كل حال الجيش الأشوري، كما لقي هو شخصياً مصرعه عندما فتح الدلتا جيش «شباكا»الكوشي،

وفى الجنوب، من المؤكد أن «شباكا»، خليفة «بى عنضى» قد فرض سيادته على مصر حتى طيبة بل وحتى منف على مايحتمل، وفي طيبة أصبحت الآن عابدة الإله آمون من سلالة سودانية، وقد غادر «شباكا» على كل حال، مدينة نياتا ليستقر في طيبة، وانطلاقاً من هذه المدينة شرع يفتح مصر السفئى، وهي العملية التي كان «بى عنضى» قد تخلّى عنها، ويبدو أنه نجح في مسعاه ولكن لم تصلنا أية تفاصيل عن هذا الغزو الذي لقى خلاله «باك إن رئف» مصرعه، وما إن انتهى دشباكا» من معاركه حتى استقر في

الشمال، وخلافاً له «تف تخت» و «باك إن رئف» لم يسع إلى مناهضة آشور العداء، ومع اختفاء الأسرة الرابعة والعشرين حكمت الأسرة الخامسة والعشرون بمفردها وفرضت سيادتها على مصر واو من الناحية الإسمية. إذ أن السلام على مايرجح لم يعم تماماً البلاد بأسرها،

خلف شباكا كل من «شبتاكا» ثم «طهرقا» على التوالى، وعاد كلاهما إلى الأخذ بسيامة نشطة في اسيا، وشجعا حركات التمرد في فلطسين ضد أشور، ولكن سياستهما لم تكن أكثر توفيقاً من سياسة «باك إن رنف». وإنها لمعجزة حقاً أن نرى الجيش الأشورى، بعد أن هزم التحالف الفلسطيني، لا يستولى على أورشليم ولا يبيد الجيش المصرى (ومن الراجح أن وباء الطاعون قد أكره الأشوريين على الإنسحاب من المعركة).

وحتى يتمكن «ملهرة» من متابعة الأوضاع في البحر المتوسط، اضبطر إلى الإقامة في مصر الوسطى على نحر مافعله أسلافه، ومن الراجح أنه اتخذ من تأنيس (صان الحجر - حالياً) مقراً له، ومن ثم كان بعيداً جداً عن مصر العليا حتى يستطيع أن يحكمها حكماً فعالاً. والكنه سعى سعياً حثيثاً ليؤمن على الأقل ولاء الجنوب، وخلافاً للتقاليد الموروثة لم يسلم كل السلطات لكهنة أمون، بل عهد بجانب منها إلى «حاكم للجنوب» هو «مونتو إم حات»، هكذا نائحظ أن السلطة الروحية قد انفصلت، عن قصد، عن السلطة الديوية لأسباب سياسية.

٣ - الفزوات الأشورية

الغزوة الأولى (١٧١ ق . م) — لم يتصلح حال، «طهرةا» بعد مغامرته الفاشلة في فلسطين، فمن مقره في تأنيس وأصل تحريضه على حركات التمرد في أشور، وعام ١٧١، استقر رأى «أسرحنون» — ملك أشور — على مهاجمة مصر مباشرة. أقد تجنب الدلتا . هيث كانت تتجمع القوات المصرية على مايظن، أيعبر سيناء، متجها صعوب منف التي استولى عليها . ثم استدار هعوب الدلتا فرصف عليها من الخلف وأخضعها . وتمكن «طهرقا» في بداية الأمر، من الاعتصام بطيبة، فلما هند «أسر حدون» المدينة، مونتو إم حات» إلى الاعتراف بالسيادة المشورية ايتجنب احتلال طيبة . وغادر «أسر حدون» مصر على جناح السرعة دون أن يخلف وراء هسوى بعض القوات، واستغل «طهرقا» هذا الرحيل ليحرض المكام المحليين الذين كانوا قد أعلنوا ولا هم عند الغزو . همد المحرية، واستعاد مدينة منف.

الغزوة الثانية (٢٦٦ ق ، م) -- عسند وقساة «أسسر حسون» استأنف ابنه «أشور بانيبال» للعارك ضد مصر، ولما تمضي ثلاث سنوات بالكاد على قيام «طهرة» بإعادة فتح مصر، وسقطت منف من جديد عام ٢٦٦، وواصل الجيش الأشوري في هذه المرة زحفه حتى طيبة فاستولى عليها، أما زعماء أسرات الدلتا الذين سبق لهم أن تمردوا على الأشوريين عام ١٧١ فقد تم أسرهم ونقلوا إلى نينوى،

وتوفى «طهرقا» بعيد هزيمته تاركاً السلطة لإبن أخية دتانت أمون» -أمون» الذى جرى تتويجه فى نباتا، وسوف ينجح «تأنت أمون» -شائه شأن عمه -- فى تحريض مصر ضد ألغزاة الأسيويين، ولكن
سوف يكون إعادة فتحه لمصر لفترة وجيزة فحسب على نحو
ماحدث عام 701.

الغزية الثالثة (١٦٤)

هكذا طرد الأشوريون من مصر للمرة الثانية، ومالبثوا أن عادوا إليها. فهزموا دتانت آمون، عام ٢٦٤ وربوه على أعقابه إلى صمعيد مصر، وسقطت طبية للمرة الثانية، وسلبت المدينة وثهبت هذه المرة، وبعد أن لجأت الأسرة الكوشية إلى السودان، انحسر نهائيا سلطانها عن مصر، وإن عاشت لعدة قرون في منطقة نياتا مروى، حيث حكمت شعباً لا يمت بصلة لما هو مصرى. فاللغة لغة إفريقية بحته، بل والكتابة ذاتها تختلف عن الخط الهيروغليفي، وإن ظلمت المؤرات المصرية قوية جداً. وسوف تصافط هذه الإمبراطورية على استقلالها حتى عام ٣٥٠ بعد الميلاد،

٧ - الأسرة السادسة والمشرون وطرد الأشوريين ١٦٣٣ - ٢٥٥ ق ، م)

اخذت أبعاد تطور الوضع السياسي العام وانتقال محور الحضارات الذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل تتحدد أكثر فاكثر، إن الدور الذي قُدُّر لسكان حوض البحر المتوسط أن

يضطلعوا به، في هذا العالم الجديد، والذي كان قائما كإمكانية كامنة منذ الغزوة الأولى لشعوب البحر، بدأ يتضبح الآن بجلاء، ولما كانت مصر عاجزة عن تحرير نفسها بمفردها من الأشوريين، فسوف تعتمد على الإغريق الذين استخدمتهم كمرتزقه، ونظراً لأن هذه المساندة لم تف بالغرض منها في حمايتها من آسيا، فسوف تتقبل مصر دون اكتراث غزو الإسكندر لها، وهكذا غضت مصر الطرف عن استقلالها الماضي، ولكن قبل أن يصبح فقدان حريتها أمراً واقعاً، ستعيش من جديد مرحلة مجد وعظمة، بفضل فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، بيد أنه علينا أن تؤكد بوضوح على حقيقة أن مصر، بعد أن حرمت من مواردها الإفريقية، باتت منذ ذلك العصر لا تدين بقوتها إلى جيشها الخاص، بل إلى استخدام ذلك العصر لا تدين بقوتها إلى جيشها الخاص، بل إلى استخدام المرتزقة الأجانب، فهؤلاء فقط كان في مقدورهم أن يحموا مصر من امبراطوريات آسيا القوية من ناحية، وأن يضضعوا رعايا فرعون ذاتهم، من ناحية أخرى.

«يسمتيك» الأول (٦٩٣ - ٦٠٩ ق.م) هو أول قراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وأمير من سايس (صا الحجر حاليا) في الدلتا، وقد خلف والده دنكاه، خلافة طبيعية. إنه أحد أحقاد دتف نخت» الأبعدين الذي كان هو أيضا أميراً على سايس وأسس الأسرة الرابعة والعشرين، وبالتالي اكتسب يستميك الأول حق المطالبة بعرش البلاد، وقد اعتمد منذ أوائل حكمه على

المرتزقة الإغريق، فبفضلهم طرد الأشوريين من مصر ولاحقهم حتى فلسطين، ولم يحل عام ١٥٣ إلا وكانت اليلاد قد تحريت --ومن ثم، فمن الراجح أن الحرب قد دامت قرابة العشر سنوات. وفي ذات الوقت وبمسائدة الإغريق أيضاً قضي على زعماء الأسرات المملية الذين كانوا يقتسمون مصر السفلي، عندئذ استطاع أن يعيد تنظيم البلاد قاطبة، وفي مصر العليا، يقي «موبنتو إم حات، حاكماً على طبية، حيث ظلَّ في منصبة هذا منذ عهد الملوك الكوشيين. ويعد مفاوضات، حمل «يسمتيك» عايدة الإله آمون التي مافتئت حتى الآن أميرة ذات أصول سودانية، على أن تتينى ابنته هو - «نيت إقرت» (نيتوكريس عند الإغريق). وبعد أن ثبت نفوذة ودهمه، عين حاكمين جديدين، أحدهما في الجنوب في إدفي، والآخر في هيراكليوروايس (إهناسيا - حالياً) في مصر المسطى، وكانت مصاولته هي المحاولة الأولى المتسعة لمضبع حد لاستقلال الوجه القبلي الفوضوي حيال السلطة المركزية، فأستردت مصر وحدتها، ومن الراجح، أن الغزو الأشوري، عندما أحيا نموذج السلطة المركزية ومنافعها، قد ساهم في عودة وحدة مصس ومبع ذأك لا يهجد وجه للمقارنة بين هذه الهجدة وما كانت عليه في العصور الجيدة من تأريخ مصر، فالأجانب من المرتزقة الإغريق هم الذين وفرو) ليسمتيك القوة للسيطرة على رعيته ذاتهم. كما أنه دان للإغريق بإعادة قوة مصر العسكرية إلى سابق عهدها في مراجهة الأسيوبين، فقد أصبحوا يشكلون قوام جيشه، وأعيد تنظيم الأسطول المصرى على نسق مثيله الإغريقي، وتحول اقتصاد البائد الداخلي ذاته بعد إقامة المستعمرات الإغريقية، ومن ثم لم تستطع مصر أن تكيف نفسها مع طروف الحياة الجديدة العالم القديم إلا بعد أن تنكرت لتقاليدها الخاصة،

«نكاو» (٢٠٩ – ٢٠٥) هو إبن «بسمتك» الأول، خلف أباه دون مشاكل واعتمد مثل أبيه على الخارج – أعاد فتح قناة البحر الأحمر أو بدأ – على الأقل – أعمال إعادة حفرها التي كانت تستهدف ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، فكانت المعورة الأولى لقناة السويس فيما بعد، كما كلّف أيضًا البحارة الفينقيين العاملين في خدمته بالدوران حول إفريقيا،

بعد أن وملّد سلطته في مصر، لم يقاوم «نكاو» إغراء العودة إلى سياسة مصر التقليدية حيال آسيا، ولم يدرك أن الزمن قد تغير وتبدل، ولم يعد في يد مصر القوة الكافية لتواجه بها الإمبراطوريات الأسيوية الشديدة المركزية. كما أن أوضاع الشرق الأدنى كانت قد تغيرت من جديد، فبعد أن ظلت أشور تحتفظ حتى الآن باليد الطولى، فقدت هيمنتها لصالح فارس وبابل بعد أن تحالفتا واستغل «نكاو» الصراع الدائر بين الفرس والبابليين والأشوريين للتوغل في أسيا على رأس جيشه، فهزم ملك يهوذا عند مجيدى، وأخضع فلسطين وسوريا، ثم واصل نحفه حتى عند مجيدى، وأخضع فلسطين وسوريا، ثم واصل نحفه حتى

الفرات، ولما وصل عند هذه النقطة اصطلام بد «نبوختنصر»، ابن ملك بابل، وهن مالجيش المسرى عند قرقميش، ومن حسن حظ «نكاو» أن «نبوختنصر» استدعى إلى عاصمة بلاده إثر وفاة والده، فلم يتمكن من جنى ثمار نجاحه، وبعد أن تمكن «نكاو» من العودة إلى مصر دون عوائق، استقاد من القلاقل الداخلية في بابل وأقام تحالفاً ضد «نبوختنصر» الذي أعاد السلام إلى الدول التابعة له، ثم قضى على هذا التحالف في يسر واستعاد فلسطين. ومع قرب نهاية حكمه، يبدو أن «نكاو» قد صرف النظر عن القتال ضد بابل، في شقة البرى على الأقل، إذ يبدو أن تشييد أسطول بمعونة في شهد على أنه كان ينوى مواصلة القتال بحراً، ولم يمهه الزمن، فقد وافته المنية قبل أن يتمكن من تحقيق مشاريعه.

أما «يسمتيك» الثاني (٨٨٥ – ٩٤٥ ق . م) – خليفة «نكار» فلا نعرف عنه سرى القليل جداً وأنه قاد حملة إلى السودان وصلت حتى الجندل الثاني، إن لم يكن حتى الجندل الرابع، وهو أمر مرجع، كما قام برحلة إلى فينقيا، ولا يبدو أن احتلال السودان الذي تحقق، على كل حال، بمساندة وحدات إغريقية وأسيوية، كان طويل الأمد،

أما دواح - إيب - رعه - دأبريس، عند الإغريق - (٨٨ه - ٦٨٠) فقد خلف ديسمتيك، الثاني واستأنف القتال ضد الفينيقيين وضرب الحصار حول مدينة صور دون جدوى على كل

حال، وحول عام ٧٠، متى بهزيمة منكرة فى أعقاب تدخله فى أيبيا فوضعت حداً لحمكه، وواقع الحال أن الليبيين قد استنجدوا به ليواجهوا الإغريق المقيمين فى قوريئة، أثارت هذه المغامرة الإستياء، ولا ريب أن «أحمس»، القائد الذى كلفه «واح إبيب رع» بتهدئة التمرد قد استغل هذا الوضع ليتزعم العصيان ضد مليكه، وظل مآل الصراع بين «واح إيب رع» و «أحمس» غير واضع على مايبدو لفترة طويلة، ومن الراجع أنه قد مضى بعض الوقت وهما يتقاسمان البلاد، ثم كانت الغلبة الأحمس، فازاح «واح إيب رع» نهائياً.

«أحمس» الثاني -- «أماريس» عند الإغريق -- (٢٥ -- ٥٦٥). ورغم أن الشعور المعادى اللجانب قد ساعده دون شك عندما اغتصب السلطة، إلا أنه تحاشى تماماً أن يثير استياء الإغريق، الذيت كانوا يشكلون قوام جيشه كما كان الحال في عهد غيره من ملوك هذه الأسرة. وعندما استأنف «نبوختنصر» القتال ضد مصر، اشتبك معه «أحمس» الثاني في معركة كانت وبالاً عليه وإن لم تؤد إلى احتلال مصر، ويؤكد المؤرخون الإغريق أن «أحمس» الثاني قد استولى على جزيرة قبرص، ولكن لا توجد بين أيدينا الثاني قد استولى على جزيرة قبرص، ولكن لا توجد بين أيدينا وثائق مصرية تؤكد هذا الغزو، أما القرس الذين لم يتوقفو) عن التوسع، فقد شكلوا مع نهاية حكمه، تهديداً على الشرق الأدنى بأسره. وايحمى نفسه تحالف «أحمس» الثاني مع «كريسوس» ملك

ليديا، كما تحالف مع أسبرطة وبابل، ولسوء حقلة ينهار حلفائه الواحد غلى الآخر أمام الجيش الفارسي الذي يستولى على ليديا أولاً، ثم يحل النور على بابل وبعدها يتجه صوب مصر، ولكن أحمس الثاني يتوفى، ويصطدم «قمبيز» بخليفته «بسمتيك» الثالث ويهزمه عند بلوزيوم (الفرما حاليا) وذلك عام ٢٥٥ ق ، م.

إن الأسرة السادسة والعشرين التي وضعت هزيمة پلوزيوم نهاية لها، قد نجحت في إعادة تشكيل مصراً موحدة مزدهرة، إن الإنجازات الداخلية التي حققها فراعنة هذه الأسرة جديرة بأن تدرس عن كثب، فيفضل ما أجروه من تتقلات بين المنطقين، وهو ماينم عن رجاحة رأى وسداده، نجحوا في إحكام قبضتهم على البلاد بأسرها، وعلى الفور استطاعت مصر أن تستغل ازدهارها المستعاد لتعيش نهضة فنية حقيقية، لقد كانت حقاً «تغريدة البجع» لمصر العجون،

٨ -- الاحتلال القارسي الأول (الأسرة السابعة والمشرون: ٢٥٥ - ٢٠٥ ق ، م)

كان الجيش المصرى بعد هزيمته عند پلوزيوم، قد ارتد إلى منف، ولكنه أثبت عجزه عن مجرد الحيلولة دون سقوط المدينة، وفي بادئ الأمر، أبقى «قمبيز» على «يسمتيك» الثالث على رأس الحكومة، ولكن سرعان ما حاول الملك المصرى أن يدبر انتفاضية ضد الغزاة، ولما فشل التمرد قُرض عليه الانتحار.

[&]quot; يتال أن البهمة وهي تمتشر تأن من شنة الألم يكانها تقرد. الترجم الترجم الارجم الإرجم الإرجم الترجم الترجم

تتكون الأسرة السايعة والعشرون من الملوك القرس وأولهم «قمبيز» الذي أكمل فتح مصر وريما خفف من نظام السلب والنهب الذي فرضة الجيش الفارسي على البلاد، ثم جاء «داريوس» الذي واصل سياسة التقاليد المتواترة لملوك مصر الوطنيين، فأمر بتشييد معبد في الخارجة وتظم استغلال مصر الاقتصادي (وائتهي من حفر قناة البحر الأهمر التي بدأها ونكاى»). ويبدى أن المصريين قد ضاقت صدورهم مما عانوه من نير الفرس، فقامت في الدلتا، حوالي عام ٤٨٦، محاولة للتمرد، ووافت المنية «داريوس» قبل أن يتمكن من إخماد هذا التمرد، ولكن «إكركسيس» الذي خلفه قضى عليه بسهولة، ولم ييأس المسريون، على كل حال، واندفع تمرد جديد بزعامة كل من «إيناروس»، أيدسايس (مما المجر حالياً)، وتلقى المتعردون الدعم من أسطول أثيني، وبفضل مساندة الإغريق، نجح المسريون في بنصر الجيش الفارسي الذي لجا إلى منف، وكان مقدراً لاقتصار المصريون أن يكون قصير العمر، فاستأنف الفرس القتال وهزموا المصريين، ولم يمضى ثمانية عشر شهراً على هزيمتهم المحلية، ونقذ الحكم الإعدام في «إيناروس» وأضطر الأثينيون إلى الإنسحاب، ولكن نجح «أميرتايوس» في المافظة على مركزه في الدلتا، ولم يتوصيل «داريوس» الثاني، إلى إعادة الهدوء إلى نصابه إلا بعد أن اتخذ موقفاً مهادناً في مصر،

٩ -- الأسسرات ٢٨ و ٢٠ و وتهاية استقائل مصر (٥٠٥ - ٢٤١ ق ، م)

رغم النشاط التهادئي للستراپيا (أي الماكم) القارسي في مصر، لم يتخلّ المسريون عن كفاحهم، وتزعم «أميرتايوس» التمرد الذي انفجر عام ١٠٠ أو هو ابن زعيم تسرد عام ٢٠٠ أو حقيده، كما أنه سمى سلفه، و «أميرتايوس» الجديد هو أمير سايس (صا الحجر – حالياً» كما أنه سليل قراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وورث عنهم حقوقاً لا يستهان بها في وراثة العرش، ولا تعرف شيئاً عن تفاصيل المعارك التي دارت بين «أميرتايوس» و الفرس، اللهم إلا أن مصر كانت قد استردت حريتها عام ٤٠٤ بعد كفاح دام ست سنوات.

لا تشم الأسرة الثامثة والعشرون التي أسسها وأميرتايوس، سوى فرعون واحد: هو مؤسسها، وحرى بنا أن نقول أننا لا نعرف عنه شيئاً عدا أنه بسط سيادته على مصر بأسرها بعد أن قام بتحريرها، ويبدو في حقيقة الأمر أن الغزوات الأجنبية كان لها الفضل على الأقل في وضع حد للفوضي التي كانت تقسم مصر،

بعد الأسرة الثامنة والعشرين خلفتها الأسرة التاسعة والمشرون التي كانت أسعد حظاً منها، لأنها تضم اربعة ملوك. ودنايف - عال - روده (دنفرتيس الأول» عند الإغريق) - عل

مؤسس الأسرة -- ويتحدر أصلاً من «منديس» في شرق الداتا، وشائه شان أسلافه من ملوك الأسرة السادسة والعشرين، فإنه أسس سلطانه على صداقته مع الإغريق وعقد ميثاقاً مع أسبرطه كما أنثا لا نعرف سوى القليل عن حكمة الذى دام لفترة قصيرة جداً. وعاد «هكر» («اكوريس عند الإغريق») إلى الأخذ بسياسة نشطة في آسيا وشارك في تحالف ضد الفرس، وعلى كل حال فقد منى هذا التحالف بالهزيمة، ولكن «هكر» استطاع بغضل اعتماده على المرتزقة الإغريق أن يتفادى غزو مصر من جديد، وخلفه «پساموت» ثم «نايف -- عاد -- رود» الثاني وخلفه «بساموت» ثم «نايف -- عاد -- رود» الثاني حركات التمرد الداخلية قد تفجرت في عهدهما، وأن أمير حركات التمرد الداخلية قد تفجرت في عهدهما، وأن أمير «سبنيتوس» (سمنود حالياً) قد خلع ثانيهما عن العرش ليؤسس الأسرة الثلاثين.

الأسرة الثلاثون هي أخر الأسرات الوطنية المستقلة، ومن الراجح أن مؤسسها «نخت - نب - إن» («نختنبو» الأول، عند الإغريق): ٣٧٨ - ٣٦٠، قد تسلم السلطة بمسائدة كهنة «سايس» (صاالحجر، حاليا)، ومن الراجح، وخلافا لسياسة أسلافه المباشرين، أن يكون قد استغنى عن مساعدة الإغريق على الأقل، في بداية حكمه، ويفضل تضافر ظروف موفقة وأخطاء أعدائه، فقد استطاع أن يحول دون عودة الفرس إلى احتلال مصر، وإن

كان هؤلاء قد تمكنوا من الوصول إلى منطقة منف. وونختنيوه الأول بنَّاء عظيم، رمِّم العديد من المعابد التي مازالت تشهد طي ذوق سليم. وكان ابنه «تايوس» (٣٦١ - ٣٥٩) شريكا في العرش في حياة أبيه، وحسب عادة جعلها المصريون قانوناً لا مناص منه، عندما غدت قوتهم دون المستوى الذي يسمح لهم بالرقوف في وجه أسيا، سعى «تايوس» إلى عقد الأحلاف مع الإغريق بعد أن كان والده قد تخلّى عنها ، ويغضل «هويليت» hoplites إسبرطة (وهم المشاة الإغريق المدججون بالسلاح)، ويقضل المرتزقة الأثينيين الذين ضُمُن مؤازرتهم له، عاد جيشه إلى ماكان عليه من قوة جبارة، فانتهز الفرصة ليشن حملة على آسيا. وللأسف، وبعد أن حقق انتصارات بأهرة في بداية الأمر، ديت الخلافات في صفوف الجيش، ولكن بعد خيانة أخيه الذي كان قد تركه وراءه في مصر، لم يجد «تايوس» وقد ضاقت به السبل، سوى أن يلوذ بالفرار إلى بلاط ملك الفرس، بينما استولى على السلطة مغتصب، هو ابن أَحْيِه: «نَحْتَنِي » الثاني.

«نختنبو» الثانى (٢٥٩ - ٣٤١) - وما إن اعتلى نختنبو الثانى العرش حتى وجد نفسه طرفاً في صراح ضد انتفاضة شعبية - انطلقت على مايبتو من منطقة منديس، وربما كانت بتحريض من أحد الأفراد سليل ملوك الأسرة التاسعة والعشرين، ولم يقض «نختنبو» على التعرد إلا بفضل مساندة الإغريق ونسج

على منوال عم والده فشيد أو أعاد تشييد العديد من المعابد، واكن لم يكتب لمصر أن تنعم طويلاً بالسلام الذي أعاده تشتنبو إلى ربوعها.

أي خلل الاحتلال القارسي الثاني ٣٤١ - ٣٤١ ق ، م)

في أسبياء كان الملك الفارسي الجديد وارتكسركسيس الثالث - أوهوس، قد عقد العزم على غزو مصر من جديد، فجهز جيشاً جراراً، وشن هجومه منذ عام ٢٥١ ق . م. وكان «نختنبو» قد جنّد في الجيش المصرى مرتزقة اسبرطيين وأثينيين تمكنوا في بداية الأمر من دحر جيش «أرتكسركسيس -- أوخوس»، الذي انكب مسرعاً يعدُّ العَّدة لغزوة جديدة ففي عام ٢٤١ ق . م، شن هجومة الجديد، برأ ويحرأ، بوسائل تعتير مهولة بمقياس هذا العصير، فقد حشيد «ارتكسيركسيس» ثلاث ميائة الف مقاتل، وثلاثمائة سفينة حربية مجهزة بثلاثة صفوف من المجاديف، في حين أم يتوفر لنشتنبو سوى مائة ألف مقاتل. وفي هذه المرة، لم تكف شجاعة المرتزقة الإغريق لوقف الجيش الفارسي، وتم الاستيلاء على منف على بجه السرعة، لضطر «تختنبر» إلى القرار إلى مصدر العلياء هيث استطاع أن يحافظ على مواقعة لمدة سنتين، ولكن نجمت حملة فارسية ثانية في استكمال احتالل مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولا ندري كيف كانت نهاية «نشتنبو» آخر ملوك مصس المستقلين،

١١ - شهاية الاحتلال الفارسي الثاني ونتح الإسكندر

إن ما نعرفه عن الإمتلال الفارسى الثانى الذي كان قصير الأمد على كل حال (فلم يدم سوى تسع سنوات) هر أقل بكثير من الاحتلال الفارسي الأول، وقد عاني السكان والبلاد الكثير، على مايبيق في ظل إحتلال قوات «أرتكسركسيس – أخوس» وخلفائه : «أرسيس» و «داريوس» الثالث «كودومان»، ومن ثم فلا عجب أن تتفجر الانتفاضات وأهمها انتفاضة «جنّاش»، أمير الدلتا الذي تلقب بالألقاب الملكية ونجح في المحافظة على مواقعه في منطقة منف لعدة سنوات، بون أن يتمكن مع ذلك من تحرير البلاد.

كان تمرير مصر من القرس من نصيب الإغريق -- ففي عام ٢٣٣ هنم الإسكندر دداريوس» الثالث «كوبومان» عند «أسوس» ودشل الفاتح المغوار مصر عام ٣٣٣ ق ، كمحرر لها واستجابة لطلب أحد الصريين، على ماييس.

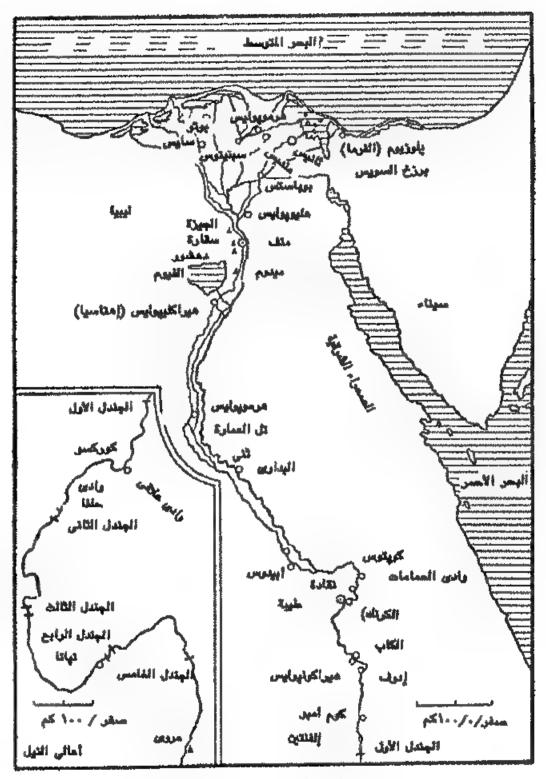
ينتهى تاريخ مصر، بمعنى الكلمة، مع الاحتلال المقدوني، وسوف يتولى ملوك إغريق ثم رومان توجيه إقدار مصر، وإن يحكم مصر، من الآن فصاعداً، فرعون من أبنائها . إن فتح الإسكندر لمسر ثم يكن صدفة عرضية، بل حدثا لا مناص منه، شأنه شأن غزى الرومان، فيما بعد، نتيجة لتوازن القوى المتواجهة، فمصر هي الآن، جن، لا يتجزأ من عالم البحر المتوسط الذي لم يكن في وسعه

ولا في مراده أن يتركها وشائها، كانت أقوى وريما أكثر شباباً أيضاً، ومن المرجم أنها كانت ستستطيم المحافظة على استقاطها بالارتكان على أراضيها الإفريقية، ولكن كما رأينا، عجزت الأسرات الوملنية الأخيرة أن تبعث الحياة في قوة مصر التليدة، ولم تنجح في إطالة أيامها بعض الشيء في مواجهة إميراطوريات أسيا الشاسعة، إلا بالاعتماد على القرات الإغريقية، وهو ما يفسر جزئياً، الأسباب التي دفعت مصر إلى تقبل احتلال الإسكندر عن طيب خاطر، وفي منطقة طبية بقي شيءٌ من روح الاستقلال التليد منامداً حول المركن الديني الذي تشبأ حول معبد أمون، وعلى كل حال، فمن منا انطلقت حركات التمرد النادرة التي قامت ضد الحكام الأجانب. ولكن ظلت هذه الحركات دون أثر يذكر، فقد ماتت المضارة المصرية وإن ظلت تحيا في المابد على امتداد أكثر من شائية قرون، حتى تم إغلاقها في عهد تيودوسيوس، قرب نهاية -القرن الرابع المياني (مرسوم عام ٣٩١)، إن العديد من هذه المعابد، رممها أو شبيدها، في واقع الأمر ملوك البطالمة أو الأباطرة الرومان، فبقيت مراكز الثقافة المصرية، والنصوص التي تفطي جدائها، تكرِّن دُخيرة قريدة في بابها البراسة ديانة القراعنة.

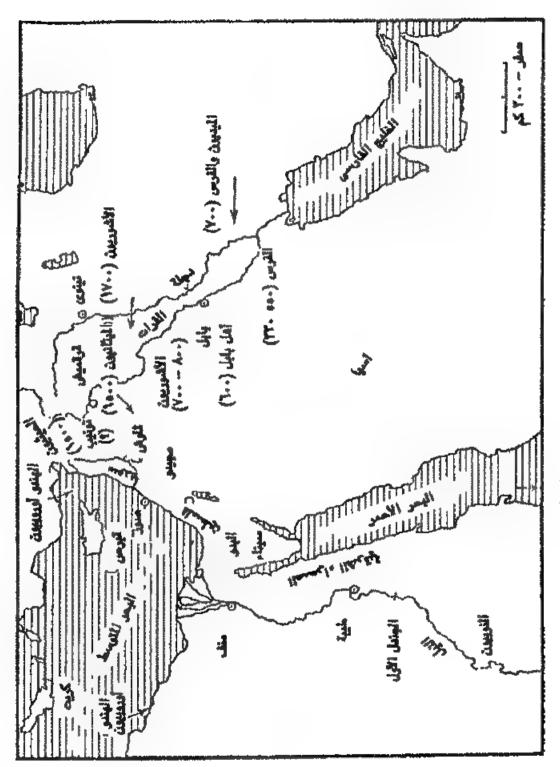
الخانهــــة

ألقينا نظرة عابرة هلى أبرز أحداث تاريخ مصر. ويعد مرحلة إعداد طويلة، مأزال يكتنفها الغموض في العديد من جوانبها، شاهدنا بزوغ وازدهار حضارة فريدة في بابها. وبعد مرحلة الاكتمال هذه لسنا كيف دمرت الفوضى، شيئا فشيئاً، الترابط الداخلي للإمبراطورية المسرية الذي شكلٌ قوة مصر كلها، وسعينا بحثاً عن أسياب هذه الاضمحلال المتد، فيجدنا أن بعضها ناجم عن تضاريس البالد الجغرافية، وبعضها الأخر عن التطور التاريخي الحضارات التي أحاطت بمصر، وربما أضيفت إلى هذه الأسباب المادية الخالصة، أسباب أخرى أكثر عمقاً ولكنها تخفي على جهود التفكير المنهجي، إن مشكلة اندثار الحضارات غامضة في العديد من جوانبها غموض موت الأفراد، لقد قضت مصر على غزوتي الهكسوس والأشوريين، ونجحت، بعد عناء كبير، في واقع الأمر، وبمساعدة الإغريق، في التخلص من الفرس، فمن كان يصدق، أنه كان يكنى أن يظهر الإسكندر في مصر، حتى تصبيح إغريقية؟ ويبدو أن فتور العزيمة قد اعترى المصريين، وتلح علينا قصائد تخلصت من كل الأرهام وتغتّى بها المسريون في ولائمهم: «الأبدان زائلة منذ الأزل وتحل محلها أجيال جديدة. الشمس تشرق مساحاً وتختفي في الغرب، ويتكاثر البشر والنساء يحملن، والرئتان تستنشقان الهواء بوفرة. وتمضي أحاديث حكماء الزمن

الغابر. ماذا حلّ بديارهم؟ لقد تهدمت الجدران واختفت منازلهم، وكاتهم لم يوجدوا قط، لا أحد يعود حيث ذهبوا ليخبرنا عن أحوالهم،، افعل في الدينا مايحاد لك حتى تدنو ساعتك الأخيرة، فإله الموت لا يسمع النواح ولا يخلص العويل أحداً من العالم الآخر، اقض يومك في مرح، أجل، لا يصطحب أحد معه ثرواته، أجل، إن الذين يرحلون إلى هناك، ما من أحد منهم استطاع قط أن يعود،»



الخريطة رقم ١ : مصبر



التربطة رثم ٢ : معير وجيراتها

جدول التتابيج الزمنس لملوك مصر

Drioton - Vandier, L'Egypte (Coll.)

اللك العقرب

الأسرة الأولي

تعرمر (میدا)

مما

چور

وأجيئ

دڻ-واديمي

عج إيب

سمرخت

Li.

الأسرة الثانية

حراتب سخموى

تبرع

نى نتر (نتريمو)

ونج سنچ پر ایپسن خع سخم خعسخموی

الدولة القديمة

(۸۷۷۰ – حوالی ۲۶۰۰ ق.م) الأسرة الثالثة (۸۷۷۷ – ۲۷۷۲ ق.م)

نپ کا

نتر إيرخت (چسر)

سمم شت

سانخت (نبكا)

هُع با

نقركا

هو (حوثي)

الأسرة الرابعة (٢٧٢٣ - ٢٢٥٢ ق . م)

سنفرق

خرفق

چدفرع

حعفر ع منکاور ع شبنسسکاف

الأسرة الفامسة (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣ ق.م)
أسركاف
ساحورع
نقر أيركارع - كاكأى
شيسسكارع
نقر أف رع
ني أسر رع - إيتى
منكاوهور
چدكارع - إسيسى

الأسرة السادسة (۲۲۲۳ - حوالي عام ۲۳۰۰ ق.م)
تیتی
آرسرکارع
مری رغ - پیپی الأول
مری رغ - عنتی إم ساف
نفر کارع پیپی الثانی

عصر الانتقال الأول (۲٤٠٠ – ۲۰۲۵ ق. م تقريباً)

نهایة الأسرة السادسة پیپی الثانی (نهایة حکمه) مرترع الثانی نیف إقرت (نیتوکریس)

> الأسرة السابعة أسرة افتراضية

الأسرة الثامنة (؟ ~ ٢٢٢٠ ق ، م) لا تعرف شيئاً تقريبا عن هذه الأسرة: يصبعب توضييح قائمة للوكها،

الأسرة التاسعة (هيراكليوپوايس: إهناسيا) (٢٢٢٢ -- ٢١٣٠) خيتى الأول (٢٢٢٢ -- ٢١٨٠ ق ، م) عدد من الملوك غير المعروفين (٢١٨٠ -- ٢١٣٠ ق.م)

> الأسرة العاشرة (ميراكنيوپوليس)

الأسرة الحادية عشرة (طيبة)

7۱۳۰-۲۱۳۰

ثنتف الأول (۲۱۳۰-۲۱۳۰)

انتف الثاني (۲۱۲۰-۲۱۳۰)

ثنتف الثاني (۲۰۲۰-۲۰۰۰)

ثنتف الثانث (۲۰۷۰-۲۰۰۰)

(نهاية الأسرة العاشرة وبداية الأسرة الحادية عشرة متزامنتان)

الدولة السملي (۱۷۸۰-۲۰۲۰)

نهایة الأسرة الحادیة عشرة (۲۰۱۰ - ۲۰۰۰)
منتهجرتب الأدل (۲۰۱۰ - ۲۰۱۰)
منتهجرتب الثانی (۲۰۱۰ - ۲۰۱۰)
منتهجرتب الثانث (۲۰۱۰ - ۲۰۰۰)

الأسرة الثانية عشرة (۲۰۰۰ - ۱۷۸۰) أمنمحات الأول (۲۰۰۰ - ۱۹۷۰) سنوس الأول (۱۹۷۰ – ۱۹۳۱) أمنع حات الثاني (۱۹۲۸ – ۱۹۰۵) سنوس الثالث (۱۸۸۷ – ۱۸۰۰) أمنع حات الثالث (۱۸۰۰ – ۱۸۰۰) أمنع حات الرابع (۱۸۰۰ – ۱۷۹۲) سويك تفرورع (۱۷۹۲ – ۱۷۸۸)

عصر الانتقال الثاني (۱۷۸۰–۱۷۸۰)

الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٥ – ١٦٨٠)
خوتارى -- امنمحات -- سبوبك حوتب الأول
سى عنخ تاوى -- سخم كارع
خوتاوى -- پن من،
أمنمحات -- سنبوف
أمينى -- أنتف -- أمنمحات
خوتاوى رع -- وچاف
سنقر إيب رع سنوسرت
شم توائى على عرش البلاد ٢٧ ملكاً يبحمل العديد منهم لقب
«خنچر» و «نفرحوتب» ، سبوبك حوتب و «ديدومسيو»، وتنتهى
القائمة بحكم «نحسى»،

وترتيب ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشر غير مؤكد. ومن الراجع أن العديد منهم قد حكموا البلاد في نفس الوقت،

الأسرتان الخامسة مشرة والسائسة مشرة (۱۷۲۰ - ۱۰۸۰)
(الهكسوس)
خيان
أبيبي الأول
أبيبي الأاذي
عاقان رع - أبيبي الثالث

الأسرة السابعة عشرة (١٦٨٠ - ١٥٨٠) تضم خمسة عشر ملكاً يحملون في الغالب اسم «انتف» أو «سويك إم ساف» وتنتهي الأسرة بحكم «سقان رع» و «قاعا» و «كامس».

> النولة المديثة (١٧٨٠ – ١٧٨٠)

الأسرة الثامنة عشرة (۱۵۸۰ -- ۱۳۱۶) أحمس (۱۵۸۰ -- ۱۵۸۸) أمنحوت الأول (١٥٥٧ - ١٥٢٠)

تحوتمس الأول (١٥٠٠ - ١٥٠٥)

تحوتمس الثاني (١٥٠٠ - ١٥٠٥)

تمرتمس الثالث (١٠٠٤ - ١٥٠٥)

أمنحوت الثاني (١٠٠٤ - ١٠٤٥)

أمنحوت الثالث (١٠٠٤ - ١٠٤٥)

أمنحوت الثالث (١٠٠٨ - ١٠٤٥)

امنحوت الثالث (١٠٠٨ - ١٠٥١)

امنحوت الرابع - أخناتون (٢٣٧١ - ١٥٥٤)

توت عنځ أمون مي

عرومحب

الأسرة التاسعة عشرة (١٣١٤ - ١٣٠٠) رمسيس الأول (١٣١٤ - ١٣١٢) سيتى الأول (١٣١٢ - ١٢٩٨) رمسيس الثاني (١٣٠١ -- ١٢٣٥) مرتبتاح أمون مس مرنیتاج – بی پتاح ۱۲۱۹ – ۱۲۱۰ سیتی الثانی رمسیس سی پتاح یارسو

الاشتمملال

الأسرة العشريين (١٢٠٠)
ست نخت (١٢٠٠ – ١٦٩٨)
رمسيس الثالث (١٩٨٨ – ١٦٦١)
رمسيس الرابع
رمسيس الشامس
رمسيس الثامن
رمسيس الثامن
رمسيس الثامن
رمسيس التاسع
رمسيس العاشر

العسس المتأشر الأسرة المادية والعشرون (١٠٨٥ - ١٠٥٤) (1.02-1.Ao) سمئدس حريحون بسسىينس الأول (١٠٥٤ – ١٠٠٩) پی ٹچم $(1 \cdots - 1 \cdots 1)$ أمون إم أويه (11× - 31×) مي أمون برسینس الثانی (۹۸۰ – ۹۸۰) الأسرة المثانية والعشرون (١٥٠ - ٧٣٠) شاشانق الأول (٥٠٠ - ٩٢٩) ارسركون الأول (١٢٩ – ٨٩٣) تكليت الأول (٨٩٣ - ٨٨٧) أرسركون الثاني (١٧٠ – ١٤٨) شاشائق الثاني (٨٤٧) تكلىت الثاني (٧٤٨ – ٢٢٨) شأشانق الثالث (٧٢٢ - ٧٧٧) يامي (٧٧٧ – ٧٧٧) شاشانق الخامس (٧٦٧ - ٧٣٠)

الأسرة الثالثة والعشرون (۱۸۱۷ ؟ – ۲۲۰)

پدى بأست (۱۸۱۷ – ۲۳۷)

شاشانق الرابع (۲۲۰ – ۲۵۷)

السركون الثالث (۲۵۷ – ۸۵۷)

ثاكلون الثالث

ثمون رود (۸۵۷ – ۲۲۰)

آرسركون الرابع

تف نخت (۲۳۰ – ۲۷۰)

تف نخت (۲۳۰ – ۲۷۰)

باك إن زنف (بكوريس) : (۲۲۰ – ۲۰۰)

الأسرة المحامسة والعشرون (الكوشية) ١٥٧ - ٢٥٦ پي عنظي (پييي): (١٥١ - ٧١٦) شباكا (٢١٦ - ٧٠١) علهرقا (٢٨٩ - ٣٦٣) تانوت آمون (٣٦٣ - ٢٥٦) منحوظة: الأسرات ٢٢ و ٣٣ و ٤٢ و ٢٥ هي أسرات متزامنة في جانب منها، وتواريخ الأسرة الثالثة والعشرين تقريبية إلى حد كبير، الأسرة السادسة والعشرون (المساوية) (٢٦٣ - ٢٥٥)

بسمتيك الأول (٢٦٣ - ٢٠٥)

تكان (٢٠٩ - ٢٠٥)

يسميتك الثاني (٤٩٥ - ٨٨٥)

واح إيب رع (أيريس) : (٨٨٥ - ٨٧٥)
أحمس الثاني (آمازيس) (٨٢٥ - ٢٧٥)

يسمتيك الثاني (آمازيس) (٨٢٥ - ٢٧٥)

الاحتلال القارسي الأول أو الأسرة السابعة والعشرون (٢٥٥ – ٤٠٤) قمبيز (٢٥٥ – ٢٢٥) داريوس الأول (٢٢٥ – ١٨٤) إكسركسيس (١٨٥ – ٢٦٤) ارتكسركسيس (١٨٤ – ٢٢٤) داريوس الثاني (٢٤٤ – ٢٤٤)

> الأسرة الثامنة والعشرون اميرتايوس (٤٠٤ -٣٩٨)

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ - ٣٩٣) نايف - عاو - رود (نعريتس الأول) (٣٩٨ - ٣٩٢) هکر (اُکوریس) (۳۹۲ – ۳۸۰) پامون (۳۸۰ – ۳۷۹) نایف عاو رود (نفرتیس الثانی) (۳۷۹ – ۳۷۸)

الأسرة الثلاثون (۸۷۸ – ۳٤۱) نخت – نب – إف (نختنبر الأول) (۸۷۸ – ۳۱۰) تايوس (۳۲۱ – ۳۵۹) نخت – نب – إف (۴۵۹ – ۳٤۱)

الاحتلاق الفارسي الثاني (٣٤١ – ٣٣٣) أرتكسركسيس الثالث – أوخوس (٣٤١ – ٣٣٨) أرسيس (٣٣٨ – ٣٣٥) داريوس الثالث كوبومان (٣٣٠ – ٣٣٣) فتح الإسكندر (٣٣٣)

ملحوظة : عند إعداد هذا الجدول اعتمدنا على «قائمة النتابع الزمنى لملوك مصر التي نشرها جان قائدييه J. Vandier في كتاب «شعوب شرق البحر المتوسط ٢٠ : مصر.

Les Peuples de l'orient méditerranéen.. II. L'Egypte 4^e éd. 1964.

وقد أثبتنا الأرقام الأولى التى وردت فى هذه القائمة، ومازال التتابع الزمئى -- وأو فى تقاصيله -- محل جدل بين المؤرخين الذين يميل بعضهم إلى خفض الأرقام الخاصة بالأسرات من الأولى إلى الثانية عشرة.

المراجع

(مراجع عامة باللغة الفرنسية)

BIBLIOGRAPHIE

بيبليوجرانيا

(Ouvrages généraux en langue française)

On trouvers un expesé très complet de l'histoire de l'Egypte et d'excellentes bibliographies pour chaque époque dans :

Etienne DRIOTON et Jacques VANDIER, Les Pauples de l'Orient méditerranéen. II. L'Egypte, 4º éd. augmontée, Presson Universitaires de France, 1962; 5º éd. anastatique, Paris, 1975.

Voir également :

- G. Jéquien, Histoire de la Civilisation égyptienne, Paris, 1930.
- A. MORET, Histoire de l'Orient, Paris, 1929 (bibliographies).
- -- Le Nil et la Civilisation égyptienne, Paris, 1926. BREASTED, Histoire de l'Egypte (traduit de l'anglais), Bruxelles.
- BREASTED, Histoire de l'Egypte (traduit de l'anglais), Bruxelles, 1926.
- S. SAUNERON, Nous partons pour l'Egypts, Presses Universitaires de France, 1966.
- Les prêtres de l'ancienne Egypte, Paris, 1957.
- P. MONTET, La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès, Paris, 1946.
- G. Posener, S. Sauneron, J. Yoyotte, Dictionnaire de la Civilisation égyptienne, Paris, 1959.
- J. PINENNE, Histoire de la Civilisation de l'Egypte ancienne, Paris, 1961-1963.
- F. DAUMAS, La Civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, 1965.
- C. DESROCHES-NOBLECOURT, L'art égyptism, collection a Les Neuf Muses », Presses Universitaires de France, 1962.
- Les Pharaons, voi. I : Le temps des pyramides, Paris, 1978, « Univers des Formes ».
- « Univers des Formes ». Les Pharaons :
 - Vol. I : Le temps des pyramides, Paris, 1978 ;
 - Vol. II : L'empire des conquérants, Paris, 1979;
 - Vol. III : L'Egypte du crépuscule, Paris, 1980.
- J. VANDIER, La religion égyptienne, coll. « Mana », Paris, Presses Universitaires de France, 1943.
- J. Vencoutten, A la recherche de l'Egypte oubliée, Paris, Gallimard, 1986.

البائيد الأول مصر في الزمان والمكان

١ -- مصدر وعائلنا المعاصد ٢ -- معرفة مصد ٣ -- أرض
 مصد ٤ -- السكان ٥ -- اللغة والكتابة

الباب الثاني

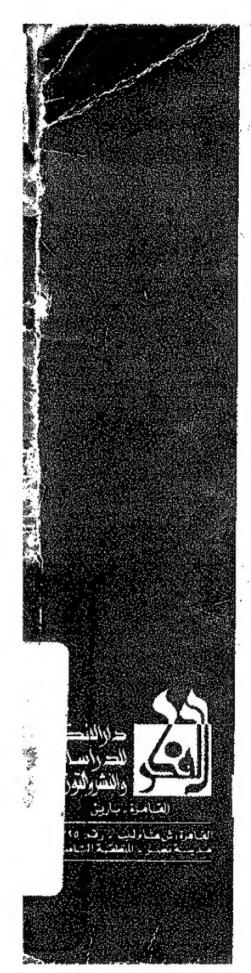
تازيخ بصر ٢٠٠٠ الفصيل الأول - العصيور المظلمة ----- ١٠٠٠ القديسم ١ - الترتيسب الزمنس ٢ - العصيسر الحجيري القديسم ٣ - العصير الإنبوليتي أي ٣ - العصير الإنبوليتي أي الككوليتي ه - نهاية عصير ما قبل الأسرات والعصير الثيني

144	القمل الثالث - عمر الإنعطاط
	١ – نهايـة الأسرة التأسعة عشرة ٢ – الأسرة العشرون
	١- الأسرة المادية والمشرون ٤ - الأسرة الثانية
	العشرون ٥ - الأسرات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ - ٦ - الغزوات
	لأشورية ٧- الأسرة السانسة والعشرون وطرد
	لأشوريين ٨ - في ظل الإحتلال الفارسي الأول (الأسرة
	٢١) ٩ - الأسرات ٢٨ و ٢٩، ٣٠ ونهاية استقلال مصر
	١٠ في ظل الإحتلال الفارسي الثاني ١١ تهاية
	لإحتلال الفارسي الثاني رفتح الإسكندر
170	
	المادسق
	_
171	١ - الخريطة رقم ١ : مصر
171	٢ الخريطة رقم ٢ : مصر وجيرانها
179	٢ - جدول النتابع الزمني للوك مصس
۱۸۲	الراجع بالراجع المراجع ال
,,-,	القعرست

١٢/١٥١٥ : والمياا من

I.S.B.N.: 977 - 5091 - 15 - 2





صدر هذا الكتاب في باريس الول مرة عام ١٩٤٦، وظل يعاد طبعه مرارا، حتى صدرت الطبعة الثالثة عشرة منه في أكتربر ١٩٩٠، منقصة ومصصحة في غيره الاكتشافات الحديثة، ومن هنا، وإن جاء ذلك متأخرا، كان لابد أن تصدر الطبعة العربية الأولى منه.

إن عالم مصريات كبير وفذ، مثل چان فيركوتير، الذى قضى سنين عديدة في مواقعنا الأثرية، يدرس، ويمحص، ويقارن، ثقادر على أن يعطينا تأريخ مصر القديمة منذ عصر ماقبل الأسرات وحتى فتح الإسكندر، بشكل مركز في مثل هذا ألكتاب الصغير، دون أن يهمل خيطا واحدا من خيوط هذا التاريخ.

وخلال هذا التاريخ الطويل الذي شهدت فيه مصر أمجاداً، وعانت من إخفاقات، وتعرضت لكل صروف الحياة، من عروب أهلية وفوضى، ومجاعات وغزوات أجنبية وصراعات دينية، سعت مصر دائما إلى البحث عن إجابات لكافة المعضلات التي ما فتثت تتسلط على ذهن الإنسان.

هكذا يقول المؤلف.

" الناشر "

